الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أحمد دراية – أدرار–

كليّة: العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية.

قسم العلوم الإنسانية.

الرقم التسلسلي:

رقم الجرد:

العلاقات الاقتصادية والروابط الاجتماعية بين توات وتمبكتو في العصر الحديث ما بين القرنين 16-18م

مذكرة تخرّج لنيل شهادة ماستر في التاريخ

تخصّص تاريخ افريقيا جنوب الصحراء

إعداد الطّالبين

-✍ التوجي لحسن

-✍ علالي عبد المالك

إِشْرَاف الأستاذ:

✓ د. بوسعيد أحمد

الموسم الجامعي: 2020/2019م

1441-1440هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي ثمرة عملي إلى من حملتني وسهرة علي أستمد منها قوتي حين أضعف بفضل حنانها ورقة قلبها إلى من علمتني معنى الحياة "أمي" أطال الله في عمرها.

إلى من ناضل من أجلي لارتاح هيأ لي أسباب النجاح إلى من يسرف في حياته من أجل أن يراني أرتقي للمجد إلى" أبي" العزيز.

إلى اخواني واخواتي وأبنائهم

وإلى من شاركني عناء إنجاز هذا العمل.

وإلى كل من وسعه قلبي ولم يسعه كلمات قلمي.

الحسن

إهداء

إلى والدتي الغالية

إلى والدي العزيز

إلى كل عائلتي فخراً واعتزازاً.

إلى أساتذتي شكراً وعرفانا.

إلى أصدقائي وكل من ساندني في إتمام هذا العمل.

إلى كل أصدقاء المشوار الدراسي

عبد المالك

شكر وعرفان

لا يسعنا الا ان نتقدم بخالص شكرنا وعظيم امتناننا إلى استاذنا الفاضل الاستاذ المشرف:

الدكتور بوسعيد أحمد

الذي احاطنا برعايته ونصحه وارشاده وافاض علينا من فيض علمه الكثير ،وزودنا بملاحظاته القيمة، والتي ساهمت في ابراز هذا الجهد المتواضع الى النور

والشكر موصول للذين ما بخلوا علينا من جهد ونصيحة، في إخراج هذا العمل

اشكرهم جميعا على مساندتهم لنا في انجاز هذا العمل

قائمة المختصرات

ج: الجزء

ص: الصفحة

ط: الطبعة

د ك ع ن ت : دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع

دت : دون تاريخ

دط: دون طبعة

د س ن: دون سنة نشر

تر: ترجمة

تح: تحقيق

N :nombre

P :page

مقدمة

التعريف بالموضوع:

شكلت منطقة توات بموقعها الاستراتيجي التميز على مر العصور همزة وصل بين مختلف الشعوب والحضارات خصوصا شمال وجنوب إفريقيا وهو ما انعكس على واقع المنطقة ثقافيا وفكريا واقتصاديا واجتماعيا فاثروا وناثرو بثقافات دول الساحل وبدورهم اثروا على المناطق المجاورة عن طريق تجارة القوافل وكذا انتقال العلماء والمشايخ تاركين الأثر البالغ على مختلف دول ومناطق جوار جنوب الصحراء.

وبالمقابل نجد ونلمس تلك الصلة والبعد الثقافي لمنطقة تمبكتو وعبر مرور الزمن ازداد هذا التواصل الحضاري.

ويعتبر القرن الثامن عشر ميلادي العصر الذهبي في تاريخ المنطقة بالنظر للعدد الهائل من العلماء الذين ينغر فيه من جهة وبرز ذلك في الزوايا المنتشرة في الإقليم التواتي وبلدان الساحل الإفريقي التي تأثرت بالإقليم.

وتهدف الدراسة إلى الكشف عن جوانب متعددة من تاريخ المنطقتين خاصة الروابط الاجتماعية والصلات الاقتصادية وهي مليئة بالحقائق التي نسعى إلى التعريف بها وإبراز الأثار التي خلفتها على التركيبة الإجتماعية للمنطقتين المتجاورتين وهو ما شكل بعداً هاماً خاصة في العصر الحديث وازدهار تجارة القوافل العابرة للصحراء والتي كانت توات مركز عبور لها بحكم موقعها الإستراتيجي وهو ما شجع الكثير من العلماء على التنقل بين الحاضرتين مما أدى إلى انصهار المجتمع التواتي بمكوناته العرقية المختلفة وانفتاحه على جنوب الصحراء .

الإطار الزماني للبحث:

نحاول من خلال هذا العمل المتواضع تسليط الضوء على العلاقات الإقتصادية والروابط الإجتماعية بين حاضرتي توات وتمبكتو في العصر الحديث في الفترة الممتدة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين إنطلاقاً واستناداً على إرهاصات وبدايات التواصل منذ الفترة السابقة التي عرفت ازدهار تجارة القوافل ورحلات العلماء خاصة رحلة الشيخ بن عبد الكريم المغيلي وما طبعها من امتزاج علمي وترابط اجتماعي كما نتطرق إلى الدور الذي لعبته توات كمركز إشعاع ثقافي مس منطقة تمبكتو وبلاد تمبكتو عامة.

دوافع اختيار الموضوع:

لقد جاء اختيارنا لهذا الموضوع لجملة من الاعتبارات الذاتية والموضوعية ولعل من أهم الأسباب الموضوعية هو إبراز الدور التاريخي والعلمي لمنطقة توات وإشرافها على بلاد تمبكتو عموما ومنطقة تمبكتو خصوصا ، هذه المنطقة الصحراوية التي شكلت رافدا هاما بين الشمال والجنوب في إفريقيا حيث عرفت في هذه الفترة الزمنية بين القرنين السادس عشر ميلادي والثامن عشر ميلادي حركة منقطعة النظير بين توات وتمبكتو برزت أساسا في الجانب الاجتماعي والاقتصادي أما الأسباب الذاتية فهي رغبة منا في استكشاف تاريخ المنطقتين وملائمة الموضوع للبيئة الجغرافية التي نعيش فيها وكذا نفض الغبار وإثراء الدراسات السابقة في هذا الموضوع من زاوبتنا نحن المتواضعة ، ومما شجعنا على هذا الموضوع هو دعم الأستاذ المشرف لنا بالمراجع والكتب التي ساندتنا كثيرا في انجاز هذه الدراسة المتواضعة.

إشكالية البحث:

نسعى من خلال هذه الدراسة المتواضعة إلى تسليط الضوء على البيئتين الجغرافيةة والتاريخية لمنطقتي توات وتمبكتو خلال العصر الحديث في الفترة الممتدة من القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين وإبراز الدور الاقتصادي والروابط الاجتماعية بين المنطقتين ولعل ابرز الإشكاليات المطروحة هي:

- ما هو الإطار الجغرافي والتاريخي لمنطقتي توات وتمبكتو؟
- ما هي إرهاصات وبدايات التواصل بين الحاضرتين ؟ وكذا الأهمية التاريخية؟
- ما هي المؤشرات والخصائص التي طبعت وميزت العلاقات الإقتصادية وماهي أبرز السلع المتداولة؟ وبماذا تميزت التجارة الصحراوية مع التعريج على أهم الطرق والمسالك بين توات وتمبكتو؟
- بماذا تميزت الروابط الإجتماعية والعادات المشتركة بين المنطقتين؟ وما هي خصائص المجتمع في توات وتمبكتو؟
- ما مدى التأثير والصلات في مختلف العلاقات الإجتماعية والإقتصادية بينهما؟

منهج الدراسة:

من اجل انجاز دراسة تاريخية وملمة بجوانب الموضوع رأينا انه لابد من الاعتماد على المنهج التاريخي لأنه المناسب لسرد الأحداث التاريخية وتتبع أهم محطاتها والوصفي التحليلي خاصة لأننا نتأمل مع مخطوطات ومصادر لابد من الاستفادة من خبرة الأستاذة الذين قاموا بتحليلها والوقوف على أهم الملاحظات والإستنتاجات المقدمة من أجل توظيفها بطريقة عليمة صحيحة بعيداً عن استعمال الذاتية والوصف الغير ممنهج والوصول إلى أفكار موضوعية وسليمة .

خطة البحث:

من أجل الإلمام بموضوع الدراسة والإجابة على الإشكاليات المطروحة بشكل منهجي وعلمي قسمنا خطة البحث إلى ثلاثة فصول يحتوي كل فصل على مبحثين أو ثلاث بالإضافة إلى مقدمة ومدخل وخاتمة وملاحق لتدعيم الموضوع وفهارس :

- تناولنا في الفصل الأول جذور العلاقات التاريخية بين توات وتمبكتو قبل هذه الفترة المراد دراستها كتوطئة للعصر الحديث حيث تعرفنا في المبحث الأول على الأهمية التاريخية لحاضرتي توات وتمبكتو من حيث النشأة والتأسيس ثم تعرفنا في المبحث الثاني على إرهاصات التواصل بين الحاضرتين من خلال القوافل التجارية وقوافل الحج وتنقل السكان بين الحاضرتين.
- تناولنا في الفصل الثاني العلاقات الإقتصادية بين الحاضرتين وذلك بالتركيز على ذكر أهم القوافل والمناطق التي مرت بها والمسالك التجارية كما تطرقنا أيضاً إلى المظاهر الإقتصادية والتبادل التجاري وأهم الأسواق والسلع المتداولة.
- تناولنا في الفصل الثالث الروابط الإجتماعية بين الحاضرتين من خلال الرحلات التواتية إلى تمبكتو وأيضاً الرحلات المعاكسة وخصائص المجتمعين والعادات والتقاليد المشتركة في اللباس والمصاهرة والفلكلور والأنماط الإجتماعية المختلفة مع ذكر أهم الأسر والقبائل التي كان لها امتداد بين توات وتمبكتو .

أهداف الدراسة :

إن الهدف من هذه الدراسة هو إبراز العلاقات الإقتصادية والروابط الإجتماعية بين منطقتي توات وتمبكتو في العصر الحديث وكيف أثرت على المجتمعين وانعكاساتها المختلفة على المجالات العلمية التي لعبت دوراً كبيراً في تقوية الروابط وهو ما تحدثت عنه أغلب المصادر

والدراسات المتخصصة في تاريخ المنطقتين، كما نشير إلى أن الهدف الأسمى هو التعريف بتاريخ المنطقتين وإثراء المكتبة الجامعية والدراسات التي لها علاقة بطريقة مباشرة وغير مباشرة بالمنطقتين والرغبة الذاتية لدى كل منا في إثراء رصيده المعرفي فيما يخص هذا الموضوع.

المصادر والمراجع:

لقد اعتمدنا في دراسة هذا الموضوع على جملة من المصادر والمراجع والمخطوطات أهمها:

- مخطوط نقل الرواة عن من أبدع في قصور توات بخزانة كوسام لمؤلفه محمد بن محمد البداوي.
- مخطوط ذرة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام بخزانة كوسام لمؤلفة محمد عبد الكريم بكراوي.

ومن أهم المصادر :

- حسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر ، بيروت دار المغرب الإسلامي، 1983، الجزء الثاني.
- مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، تحقيق مولاي عبد الله الطاهري ، الجزائر، ديوان النشر، 2010.

ومن أهم المراجع:

- جعفري مبارك ، العلاقات الثقافية بين توات وتمبكتو ، خلال القرن الثاني عشر الهجري، ط1، 2009.
- محمد حوتية، توات والأزواد ، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر هجري 18-19 م ، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، الجزائر ، 2007.
- فرج محمود فرج ، إقليم توات خلال القرنين 12-13هـ/18-19م، الجزائر 1984.

صعوبات البحث:

لا يكاد يخلو إي بحث علمي من صعوبات وعوائق ومن أهم هذه الصعوبات نذكر:

- صعوبة التعامل مع المصادر المخطوطة بطريقة علمية نظراً لرداءة الورق المستعمل وصعوبة فهم بعض المصطلحات.

- نظرة بعض أصحاب خزائن المخطوطات والمكتبات وعدم تسهيل عملية البحث.
- صعوبة الوصول إلى بعض المصادر الورقية والمراجع بسبب إغلاق معظم المكتبات بسبب فترة الحجر الصحي.
- شح المادة العلمية في مقياس تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء.
- تداخل بعض المعلومات وتشابهها أحياناً وإن وجدت فهي قليلة.

المدخل:

التعريف بمنطقتي توات وتمبكتو تاريخيا وجغرافيا

أولا: أصل التسمية ودراسة جغرافية:

1) منطقة توات

التسمية:

اختلفت المصادر حول تسمية المنطقة بـ "توات"، حيث ترى بعض المصادر أن أصلها بربرية أعجمية أطلقها قبائل لمتونة عندما وفدوا إلى الإقليم وكان ذلك في القرن 12م، ويروي عبد الرحمن السعدي صاحب كتاب "تاريخ السودان" أن سلطان مالي كنكا موسى مر بتوات وهو في طريقه إلى الحج فأصابه بها وجع إلى رجله فأطلق عليها الاسم بمعنى الوجع في لغة سنغاي[1].

ويرى بن عمر بن محمد المبروك البداوي في مخطوطه "نقل الرواة عن من أبدع في قصور توات" أن عقبة بن نافع الفهري فاتح بلاد المغرب لما وصل إلى واد نون ودرعا وسجلماسة سنة 62هـ سأل عن المنطقة التي بعدها أي "توات" هل هي مواتية بنفي الحرامين والعصاة إليها فوافقوه فسميت بذلك[2].

يرى مولاي أحمد الإدريسي الطاهري في كتابه "نسيم النفحات من أخبار توات" أن سبب تسمية المنطقة بهذا الاسم كونها منطقة توات للعبادة[3].

يرى المؤرخون الغربيون أن أصل اسم توات أطلقه البرر من الطوارق على مجموعة الواحات التي تنتشر بالمنخفض العميق لواد الساورة ووادي مسعود وهو ما يذهب إليه Mondeville، في حين يرى المؤرخ الفرنسي Martin أن كلمة توات مركبة من "وا" وهي مفردة إفريقية من وازيس Oasis بمعنى الواحة وهذا يتطابق مع المصطلح البربري "وا" Oua الذي مر تعبير عن جمع مفردة توات Touat وهي تعني البلد[4].

1- عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، مكتبة هوداس باريس، 1964م، ص 236.

2- محمد بن محمد البداوي، نقل الرواة عن من أبدع في قصر توات، مخطوط خزانة كوسام، أدرار، ص 05.

3- مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، تحقيق: مولاي عبد الله الطاهري، الجزائر، ديوان دار النشر، 2010م، ص 119.

4- أحمد محمد بوسعيد، الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن 12هـ/18م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، التاريخ العام المغاربي والاجتماعي والثقافي، جامعة أدرار، 2011-2012م، ص 43.

2) الموقع الفلكي الجغرافي:

يتوسط إقليم توات الجهة الغربية من الصحراء الكبرى وهو يتربع على مساحة واسعة وذلك بين خطي طول أربع درجات شرقا ودرجة واحدة غرب خط غرينتش، وبين دائرتي عرض عشرون درجة إلى ثلاثين درجة شمالا، وهو ما جعله يطل على منطقة تمبكتو وبالتحديد دولتي مالي وموريتانيا وبذلك يحتل الإقليم مركزا جغرافيا مهما، ويتربع إقليم توات على مساحة تقارب ألفي ميل مربع، ينقسم الإقليم إلى ثلاث وحدات رئيسية هي: قورارة، توات، تيديكلت.

تقع منطقة قورارة شمال توات محاطة بالعرق الغربي من جهة الشمال والشمال الشرقي، وبهضبة تادمايت من الجنوب، والحوض الشرقي لواد الساورة من الشرق، ومن أهم قصورها: قصور أوقروت، قصور تيميمون وغيرها، أما منطقة توات الأصلية والتي تقع ما بين نهايات الهضبة العليا للقرارة والتي تكون الحافة الشرقية لواد مسعود وأهم قصورها: قصر بودة، قصور تمنطيط، أما منطقة تديكلت فتقع بين توات الأصلية غربا وهضبة تادمايت شمالا وهضبة مويدر جنوبا، ومن أهم قصورها: قصر أولف، قصر أقبلي، وقد ظلت تمنطيط عاصمة لإقليم توات إلى غاية القرن 17م حيث انتقلت إلى مدينة أدرار أكبر مدن مقاطعة تيمي[1].

هذا وينحصر الإقليم فلكيا بين خطي طول 1 درجة شرقا و4 درجة غربا، وبين دائرتين عرض 26 درجة و30 درجة شمالا، وهذا يعني اشتماله على خط الطول الرئيسي "غرينتش" وامتداده شمال العروض المدارية الحارة، وإذا كانت هذه هي حدود منطقة توات فما هي يا ترى خصائص هذه المنطقة من حيث التضاريس والمناخ؟

1-2- التضاريس والمناخ:

رأينا سابقا من خلال عرض الموقع الجغرافي للإقليم التواتي أنه يقع في عمق الصحراء ولاشك إذن أن الرمال هي المظهر التضاريسي الغالب عليها، ويصور لنا صاحب "الرحلة العياشية" أبو سالم العياشي في رحلته كثرة تلك الرمال قائلا: "وعلمنا عند ذلك حسن مبالغة القائل: اللهم صل على سيدنا محمد عدد الرمال" [2]. هذا وتحيط بالإقليم كثبان رملية عالية ومتحركة تتمثل في العرق الغربي

1- فرج محمد فرج، إقليم توات خلال القرنين 12-13هـ/ 18-19م (دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية)، ج 1، د.ك.ع.ن.ت، الجزائر، 2007م، ص 28-36.

2- أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية (ماء الموائد)، تحقيق: سعيد الفاضيلي وسليمان القرشي، الإمارات، د.س.ن.ت، 2006م، ص 107.

الكبير وعرق ايقدي، أما من الجهة الشرقية فتحيط به هضبة تادمايت أكبر الهضاب الصخرية الصحراوية والتي يبلغ ارتفاعها 836م على مستوى سطح البحر.

وتعكس لنا هاته التضاريس الصورة المناخية للإقليم والذي يغلب عليه المناخ الصحراوي الجاف التي يتميز بارتفاع درجة الحرارة صيفا والبرودة شتاءا، أما كمية التساقط تقل عن 25ملم، وهو ما يجعل السنة تتكون من فصلين فقط، أحدهما بارد يمتد من ديسمبر إلى مارس أما باقي شهور السنة فتتميز بارتفاع درجة الحرارة والتي تتجاوز الخمسين درجة ويرجع ذلك إلى الرياح المعروفة علميا برياح السيروكر ومحليا "ايريفي"، ولاشك أن الظروف المناخية القاسية للإقليم لها تأثير على الغطاء النباتي فاقتصر على بعض النباتات المتآلقة مع الجنان والحرارة كالنخيل والصبار، بالإضافة إلى بعض الشجيرات الموسمية الموجودة على مجاري المياه والتي تنمو بسيلانها وتختفي بجفافها، ورغم هذه الظروف المناخية الصعبة إلا أنها لم تقف حاجزا أمام الإنسان التواتي ليستقر بالإقليم وتشكيل جماعات.

2- منطقة تمبكتو :

أصل التسمية وأهمية الموقع:

تقع مدينة تنبكت على جنوب الصحراء الكبرى بالمنطقة المعروفة بمنحنى النيجر على دوران قرصه الشمالي وتعتبر مدينة تنبكت حلقة وصل بين تمبكتو والصحراء الكبرى وهي قريبة من نهر النيجر وأغلب الآراء تؤكد أنها تأسست في أواخر القرن الخامس هجري الحادي عشر الميلادي.

يبدو أن مؤسسيها من البربر الطوارق وخاصة طبقة النبلاء والأعيان والسادة من الطوارق وكانوا ينزلون بها شهور الصيف وفي الخريف يرتحلون، ويرى آخرون أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى عجوز كانت تسكن في نفس المكان قبل إنشاء المدينة وكان الرحالة ينزلون حول بيتها فتساعدهم ويساعدونها وتحرس لهم بعض متاعهم، فلما أنشئت المدينة سميت باسم المرأة[1].

ومثلت التجارة المصدر الرئيسي في حياة سكانها واهتموا بها اهتماما شديدا، وتوافد عليها التجار من تمبكتو ومن شمال إفريقيا في حركة دءوبة يحملون معهم بضاعتهم ويعودون محملين بالذهب وريش النعام وبلغت تنبكت ذروة ازدهارها في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، الذي

1- عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 20-21.

عرف بالعصر الذهبي لهذه المدينة حيث بلغت القوافل القادمة إليها سنة 751هـ-1350م اثني عشر ألف جمل[1].

ذكر ابن خلدون العلاقات التجارية في تمبكتو حيث قال: "وهابتهم أمم السودان، وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وإفريقيا"[2].

إن موقع تنبكت جعلها تكتب أهمية حضارية وتجارية، حيث كان ذلك جليا منذ نشأته، إذ أنها تقع على ملتقى طرق القوافل البرية عبر الصحراء والقوافل النهرية التي تسير بنهر النيجر وأهم الطرق التي كانت تتصل بتنبكت أربعة هي:

1 -الطريق من مصر مارا بكاتم إلى تنبكت.

2 -الطريق من تونس مارا بهقار إلى تنبكت.

3 -الطريق من المغرب الأقصى مارا بسجلماسة[3]، توات، تنبكت.

4 -الطريق من تغازة [4] مارا بولاتة[5] إلى تنبكت[6].

يصف حسن الوزان تنبكت بوفرة خيراتها وبكثرة حوانيتها التي تبيع المنتوجات القطنية والأقمشة المجلوبة من الشمال ..... وأوربا [7]. ويصفها السعدي بأنها ملتقى التجار أصحاب رؤوس الأموال الكثيرة من كلا البلاد، وأن التجار بالمدينة حظوا بمكانة مرموقة وكبيرة والمثال على ذلك أن حاكم تنبكت من قبل إمبراطور السنغاي هو (عمر بن محمد الندي) زوج ابنتيه من أخوين من كبار تجار تنبكت لثرائهما الواسع، وكذلك ما زاد من اهتمام الأمراء بالتجار أن الملك أعلن عداه لليهود حتى

1- عبد الله سالم بايزية، انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ط1، 2010م، جامعة 07 أكتوبر، مصر، ص 141.

2- عبد الرحمن محمد ابن خلدون، كتاب العبر، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، 2001م، ج7، ص 77.

3- سجلماسة: تقع بالمنطقة الغربية من الصحراء الكبرى، الحدود الجنوبية الشرقية لملكة المغرب.

4- تغازة: تقع جنوب المغرب الأقصى بالقرب من المحيط الأطلسي على طريق القوافل بين المغرب وتنبكت.

5- ولاتة: هي إحدى مدن جمهورية موريتانيا الحالية سكانها خليط من الزنوج والعرب هاجر إليها العديد من العلماء.

6- ابن خلدون، المرجع السابق، ص 200.

7- عبد الرحمن السعدي، المرجع السابق، ص 205.

أنه لم يقم في بلاده يهودي واحد، وإذا وصل إليه أن أحد التجار على علاقة مع اليهود صادر أمواله وهذا الأمر ضاعف من الاعتماد على التجار المسلمين[1].

وقد اشتهرت هذه المدينة بصفة خاصة بأنها مركز الدين والتجارة ذلك لأن الحركة العلمية فيها قد ازدهرت خاصة في زمن السلطان مسنى موسى حيث استقدم عددا كبيرا من العلماء لاسيما المغرب ومصر والأندلس فامتلأت هذه المدينة بالعلماء وكان ازدهار حركة التجارة بينها وبين الدول المجاورة من العوامل التي ساعدت على ازدهار الحركة العلمية حتى ظهرت تنبكت في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي كأعظم مدينة حضارية وثقافية وعلمية في تمبكتو، حيث انتشرت بها مدارس تحفيظ القرن الكريم والكتاتيب واشتد الطلب على شراء الكتب وهي مخطوطة، إذ كانت تجارة رابحة تدر أرباحا طائلة، بحيث فاقت الأرباح الناتجة عن العمل أو أي تجارة أخرى، وهذا يدل على عظم الإقبال والتلهف على اقتناء الكتب وكثرة العلماء والمتعلمين، واشتهرت تنبكتو كذلك بمسجدها سنكري أو جامعة سنكري التي كانت ذات سمعة واسعة في العالم الإفريقي والعالم الإسلامي.

لم تكن تنبكتو مركزا تجاريا وسوقا فقط بل كانت مركزا عظيما من مراكز العلم والثقافة، يقول السعدي في تنبكتو: "... وما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد عفلى أديمها قط لغير الرحمن، كانت مأوى العلماء والعابدين ومألف الزاهدين والأولياء وملتقى الفلك والسيار فجعلوها خزانة لمتاعهم وزرعهم إلى أن صارت مسلكا للسالكين في نهاجهم ورجوعهم ويأتيها الناس من كل جهة ومكان وقد صارت سوقا للتجارة..."[2].

1- حسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1983م، ج2، ص 265.

2- عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 22.

أهمية الموقع:

حسب حسن الوزان المدعو ليون الإفريقي قد حدد موقعها قائلا: "... على بعد نحو اثني عشر ميلا من أحد فروع نهر النيجر"[1].

تقع تمبكتو فلكيا بين خط عرض 5 درجة و 254 درجة شمالا، ومن خط طول 17 درجة غربا إلى 15 درجة شرقا، أما حدود المدينة وموقعها الجغرافي فيحيط بها من جهة الشرق قرية جاو [2] عاصمة إمبراطورية السنغاي، ومن ناحية الغرب مدينة ولاته[3]، وأما الشرق فنجد أروان[4]، وجنوبا مدينة جنى.

كل هذه المدن المحيطة بتمبكتو تعد من المدن التجارية الكبرى في منطقة تمبكتو، وتمركزها داخل هذه المدن أدى لاستحواذها على مكانة مهمة، حيث تتمثل أهمية الموقع أن:

- الذهب والملح من أهم سلع المبادلات التجارية عبر كافة بلدان تمبكتو، فأصبحت مدينة تمبكتو ملتقى لبيع وشراء هاتين المادتين من أسواقها التجارية.
- إن موقع مدينة تمبكتو في الصحراء الكبرى ونحن نعلم أن مناخ الصحراء حار ومشمس خاصة في فصل الصيف، جعلها بمثابة محطة تستريح بها القوافل التجارية سواءا الآتية من الشمال أو الجنوب.
- أن تمبكتو حلقة وصل بين الشمال الإفريقي ومدن تمبكتو لاحتضانها القوافل التجارية.
- أن تمبكتو قرية من نهر النيجر فقد أصبحت تتمتع بأراضي خصبة صالحة للزراعة ووفر لها هنا النهر ثروة مائية كبيرة.

1- حسن الوزان، المرجع السابق، ص 266.

2- جاو: تقع جنوب شرق تمبكتو على نهر النيجر، تتوفر بها مناجم النحاس في طريقها إلى مالي. انظر: عبد الله سالم بايزية، المرجع السابق، ص 146.

3- ولاته: تقع إلى الشمال الغربي من تمبكتو ومعناها الأرض المرتبطة تأسست حوالي القرن الأول هجري. انظر: عبد الله سالم بايزية، المرجع السابق، ص 147.

4- أروان: تقع على طريق الملح وسط الصحراء الكبرى أصبحت منطقة عبور نحو المغرب. انظر: محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في تمبكتو، مؤسسة الخليج، بغداد، ج4، 1982م، ص 585-586.

- قصدها العلماء والرحالة من كل صوب وحرب لمعرفة ما تخفيه هذه الرمال ورائها وقد كان الطريق إليها شاقا ووعرا حسب ما وصفه الرحالة والمغامرين، حيث كان العطش كثيرا ما يودي بحياة المستكشفين وتقف الرمال حاجزا طبيعيا منيعا أمام المستعمرين والغزاة[1].

1- محمد حوتية، المرجع السابق، ص 33.

الفصل الاول:

جذور العلاقات التاريخية

بين توات وتمبكتو

المبحث الأول : الأهمية التاريخية لحاضرتي توات وتمبكتو

المبحث الثاني: بدايات التواصل بين الحاضرتين توات وتمبكتو

المبحث الأول : الأهمية التاريخية لحاضرتي توات وتمبكتو

المطلب الأول: الأهمية التاريخية لحاضرة توات

ازدادت أهمية توات كحاضرة علمية وتاريخية في العصر الحديث بعد أن قصدها العلماء من الحواضر الأخرى من تلمسان وفاس وغيرها، حيث ذكر ابن بطوطة[1] أنه مر بتوات بعد رحلته الشهيرة عائدا من تمبكتو إذ استعد هو ومن معه لعبور صحراء شاسعة لا عمارة فيها ولا ماء واصفين الوصول إلى توات هدفهم، فالوصول لها علامة على سلامة القافلة وكانت بابا من أبواب المغرب وإيذانا بولوج تراب المغرب الأقصى، ويقول ابن بطوطة: "ورفعت زاد سبعين ليلة، إذ لا يوجد الطعام بين تكدا وتوات".

أما المصدر الثاني الهام الذي ذكر توات هو ابن خلدون [2] الذي أورد الأهمية التاريخية لتوات في مظهرين؛ أحدهما محلي يتمثل في العمران الذي اعتبره ابن خلدون أسا الحضارة، والثاني إقليمي يتجلى في كونه همزة وصل بين المغرب وتمبكتو، ويبرز ذلك في قوله: "يسمى وطن توات وفيه قصور متعددة تناهز المائتين قصر آخذة من المشرق إلى المغرب، وآخرها من جانب المشرق وتسمى تمنطيت وهو بلد مستبحر في العمران ، وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد "، وعلى غرار تمنطيط وبودة فقد اشتهرت مثيلاتها من قصور تيكورارين ابن خلدون المولع بالعمران والعمارة فأفرد لها مقطعا جاء فيه: "... قصور تيكورارين هي كثيرة تقارب المائة في بسيط واحد منحدر من المغرب إلى المشرق واستبحرت في العمران وغصت بالمساكن"[3].

ونجد حسن الوزان (ت 957هـ/1550م) يشاطر ابن خلدون في عمارة تيكورارين وتعدد قصورها بوصفها "منطقة مأهولة في صحراء نوميديا تحتوي خمسين قصرا وأزيد من مائة قرية منتشرة بين حدائق النخيل"[4].

نجد القشتالي (ت 1031هـ/1622م) يؤكد الأهمية التاريخية والشهرة التي حظيت بها توات ومميزاتها السكنية، حيث وصفها قائلا: "هذا الإقليم المفرع إلى قطر توات هو أوسع وطنا وأفسح مجالا

1- ابن بطوطة: رحالة مغربي مشهور زار توات عائدا من تمبكتو (ت 779هـ/1377م).
2- ابن خلدون: عالم ومؤرخ تونسي (ت 808هـ/1406م).
3- جعفري امبارك، المرجع السابق، ص 294.
4- حسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص 233.

وأقرب للسودان اتصالا وجورا إلى قطر تيكورارين، وهو أعظم اشتهارا وأعرف نقيبا وأشد شركة وأخشى جانبا وأعظم أقاليم المغرب وأكثرها أمما وأفسحها خطة، انتظم عمرانه واتصلت قصوره وتراصت نخيله على مسافة ثلاثين مرحلة أو أكثر"[1].

وبعد عبور أرض الهقار نحو الشمال وصلت القافلة إلى بودة وهي أرض توات، وكانت إذ ذاك بابا من أبواب المغرب يعتبر الوصول إليها علامة على سلامة القافلة وإيذانا بولوج تراب المغرب الأقصى، ممثلا في أولى حواضره سجلماسة، ويؤكد ابن بطوطة في مقدم حديثه إذ يقول: "... ثم وصلنا بودا وهي من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسباخ وتمرها كثير لكنه ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب ... وأكل أهلها التمر الجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزنون التمر ويقتاتون به".

كما أن للعياشي (ت 1090هـ/ 1679م) رأيا مخالفا لوصف الوزان، حيث اعتبر ساكنة تسابيت من العوام أهل تجارة يعيشون بما يكتسبونه من بيع التمر ذي الأنواع الكثيرة ، ويوجد عندهم من البضائع والسلع التي تُجلب من أطراف السودان شيء كثير[2].

فالطابع الغالب على هذه البلاد في نظر العياشي هو التجارة ، لأنها مَجمَعُ القوافل الآتية والعابرة إلى مختلف الأصقاع، وهي سوق رائدة في صرف الذهب والعملات. ذلك ما يؤكّده قوله : "وعدد المثقال عندهم أربع وعشرون موزونة ويقولون للمثقال الأربعيني مثقال شريفي ... وسبب إقامتنا في هذه البلاد أن كثيراً من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخّروا الصرف إلى توات، فإن الذهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر"[3].

المطلب الثاني : الأهمية التاريخية لحاضرة تمبكتو

بعد تأسيس مدينة تنبكتو من قبل طوارق مقشرن، حيث مرت بعدة مراحل سياسية مثلها مثل دول الغرب الإفريقي، فبعد استقرار الطوارق بها لمدة طويلة من الزمن بلغت أهمية هذه المدينة خلال حكم الملوك الماليين الذين ظلوا يسيرون حملات ضد الطوارق ومنها حملة القائد المالي "ساكورة"، أما خلال حكم ملك مالي منسى مرسى (1307-1322م)، ومنسى سليمان (1336-1358م)

1- جعفري امبارك، المرجع السابق، ص 299.

2- أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 80.

3- أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 79.

كانت قبائل الطوارق تنشر بشكل كبير، وبالتالي فقد ولى حكام مالي نوابا للمدن والمناطق الصحراوية وكان هؤلاء النواب من أصل غير صنهاجة، أما بعد حكم ملوك السنغاي تولى سني علي زمام الحكم وقام بالقضاء على مجموعات الطوارق وهذا ما أدى إلى الخلاف بين سني علي وعلماء وفقهاء مدينة تمبكتو خاصة الذين قدموا من مدينة ولاته.

إن البطش الذي أصاب العلماء والفقهاء بمدينة تنبكتو لهجرتهم فر مدينة ولاته ولكن بعد وفاة سني علي (898هـ-1492م) غادر منها، ومذ ذلك الحين دخلت الإمبراطورية عهدا جديدا سمي بعهد الأساكيا نسبة الأسكيا محمد وكان ذلك عام (899-999هـ/1493-1591م) وهو العهد الذي ازدهرت به الحياة الثقافية والعلمية في مدينة تنبكتو وذلك لما أضافه الأسكيا من مساجد ومنابر علم، لكن بعد احتلال الملوك السعديين لمدينة تنبكتو دخل الباشا جودر بجيشه إلى تنبكتو 30 ماي 1591م، فقام هذا الجيش بقتل وتهجير العلماء الذين كانوا يمارسون مهنة التدريس في مدينة تنبكتو[1].

تطورت المدينة وازدادت عمارتها وقصدها الناس من مختلف الشعوب والجهات، مصر، فزان، غدامس، توات، درعة، تافيلالت، وغيرها، كما كانت بها أسواق كبيرة جعلتها مركزا تجاريا هاما واسعا في الصحراء[2].

بدأ نجم المدينة في الصعود خلال مملكة مالي الإسلامية، ولفتت الأنظار إليها كمركز إشعاع علمي وحضاري، خاصة في عهد الملك (منسى موسى) بعد رجوعه من رحلة الحج الشهيرة، التي قام بها (724هـ-1325م) وتصدق في مكة بعشرين ألف قطعة من الذهب وأثناء عودته اصطحب معه الشاعر الغرناطي الملقب (الساحلي)، الذي قام بتصميم جامع كبير في المدينة، سمي جامع (دينكربير) ثم نبت سيدة فاضلة من إحدى القبائل المالية مسجد سانكوري[3].

ازدهر العلم والثقافة في المدينة مع توافد الطلبة والعلماء من الشمال وغرب إفريقيا واستمر دورها في التعاظم ليبلغ أوجه أيام مملكة السنغاي، أين زارها حسن الوزان ليون الإفريقي وقال عنها:

1- منيرة قاية، الحوافز الإسلامية في إفريقيا في عهد مملكتي مالي والسنغاي - تمبكتو نموذجا (05-10هـ / 11-16هـ)، ص 15.

2- جعفري امبارك، العلاقات الثقافية بين توات وتمبكتو خلال القرن 12هـ، د.س.ن.ج، ط1، 2009م، ص 28.

3- تقي الدين المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفا والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2000م، ص 140.

"إن سكانها أغبياء مترفون، خاصة الأجانب المقيمين بها، وبها عدد كبير من العلماء والفقهاء، تعرضت لحريق أثناء إقامته بها"، وقد وصفها محمود كعت بأنها مدينة لا نظير لها في البلدان من بلدان تمبكتو وهي تحب الأجانب وتعطف عليهم خاصة من أهل العلم، أما ابن بابير الأرواني فقال عنها في كتابه السعادة الأدبية: "أنها مدينة غاية في الحسن والجمال وهي قاعدة بلاد تمبكتو فيها ما شاء من دين ودنيا، لم تزل منذ تأسيسها دار علم وفقه وصلاح وولاية..."، وقال عنها السعدي في كتابه تاريخ السودان: "...البلدة الطيبة ... الزكية الطاهرة الفاخرة ... التي هي مسقط رأسي، وبغية نفسي، ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين، ومألق الأولياء والزاهدين..."[1].

كانت تمبكتو في البداية عاصمة تجارية لكن مع مرور الوقت أضيفت لذلك مكانة علمية وحضارية، حيث صارت حاضرة من حواضر العالم الإسلامي وحظيت قبيل القرن السادس عشر الميلادي بمكانة لم تصل إليها مدينة غرب إفريقيا وأصبحت تضاهي كبرى المدن كفاس، مكناس، تلمسان، القاهرة، بجاية بكثرة علمائها وفقهائها كأحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ/ 1627م)، والقاضي محمود كعت (ت 1058هـ/1648م)، وعبد الرحمن السعدي (ت 1065هـ/1655م) صارت عاصمة لبلاد السودان تجاريا وعلميا وتاريخيا وانتشرت بها تجارة الكتب التي كانت تباع بسعر الذهب، وكان العلماء يخرجون لملاقاة القوافل التجارية من الشمال بحثا عن ما تحمله من كتب[2].

1- عبد الرحمن السعدي، المرجع السابق، ص 21.

2- جعفري امبارك، المرجع السابق، ص 176.

المبحث الثاني: إرهاصات التواصل بين الحاضرتين توات وتمبكتو

المطلب الأول: القوافل التجارية

شكلت التجارة إحدى وسائل الاتصال المباشرة والمثمرة بين توات وإفريقيا وكانت ملتقى القوافل من الشمال مع القوافل القادمة من بلاد السودان [1]، بوصفها منطقة عبور وممر رئيسي لهذه القوافل خاصة بعد تراجع مكانة الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة، ولاته، غاو نتيجة للاضطرابات السياسية وانتشار قطاع الطرق، مما أدى إلى تدحرج التجارة شرقا نحو طريق توات الذي أصبح الأهم مع ازدهار مملكة السنغاي، وأدرك الأوروبيون هذه الأهمية الكبيرة مبكرا لأنها كانت تمثل الطريق للوصول إلى ذهب السودان ولهذا الغرض جاء التاجر الجندي (أنطونيو مالفانتي) إلى تمنطيط سنة 1447م، للتعرف أكثر على المنطقة وتطرقها التجارية حيث كانت تجتمع القوافل القادمة من الشمال لتنطلق جنوبا.

كانت هذه القوافل محملة بالكتب والمخطوطات بعدما راجت تجارتها في ذلك العصر بفضل ما كانت تدره من أرباح تفوق بكثير أرباح السلع الأخرى، بالإضافة إلى التجار المحليين وكانت تجارتهم غالبا مع تمبكتو مع تمتعهم بثقافة علمية واسعة أهلتهم للقيام بدور علمي إلى جانب نشاطهم التجاري وهو ما يعرف بظاهرة الفقهاء التجار [2]، الذين آثروا العمل بالتجارة على التدريس والقضاء لبركتها ولما كانت توفره لأصحابها من مكاسب أو هروبا من تولي منصب القضاء، لكن دون انقطاع على نشاطهم العلمي، وقد تعرف تنبكتو على كثير من التجار التواتيين الفقهاء، ومن أمثلة ذلك: الشيخ محمد فتحا بن أبي محمد الأمريني التواتي (ت 1008هـ/1600م) الذي درس في فاس وتضلع في مختلف العلوم مما أهله لتولي منصب القضاء فدعاه الملك السعدي أحمد المنصور ليكون قاضيا على توات لكنه رفض العرض بعد أن قال لرسول المنصور: "... لأن يحاسبني الله على ألف قنطار أيسر علي من أن يسئلني عن قضية فاصلة بين اثنين..."[3].

كما أن بعض العلماء التواتيين مارسوا التجارة انطلاقا من الحاجة لتأمين مكاتب ونفقات الزوايا ومدارس العلم التي قاموا بإنشائها ونذكر في هذا الصدد الشيخ سيدي علي بن حنيني (ت

1- حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 133.

2- جعفري امبارك، المرجع السابق، ص 192-193.

3- محمد بن عبد الكريم البكراوي، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة كوسام، أدرار، ص 107.

1115هـ/1703م) صاحب الزاوية المشهورة بزاقلو، الذي كان يملك قافلة وصل تعدادها تسعمائة جمل، تاجر مع بلاد السودان وكانت أرباحها تنفق على طلبة الزاوية وعابري السبيل في توات وغيرها.

وكانت تأثير التجار كبيرا فهم سفراء توات في إفريقيا وبفضل معاملتهم وطريقتهم المشبعة بالروح الإسلامية، حازوا على إعجاب وثقة الإنسان الإفريقي فراح هذا الأخير يقلدهم في سلوكهم المستمد من تعاليم الإسلام الحنيف، مما كان له دور في انتشار الإسلام والطرق الصوفية كما أسهم في انتقال الكثير من العادات والتقاليد بين الحضارتين[1].

المطلب الثاني: ركب الحجيج

كانت توات إحدى المحطات الرئيسية لحجيج بلاد تمبكتو وشكل الحج فرصة سنوية ومناسبة لكثير من الأفارقة لزيارة المنطقة والالتقاء بعلمائها وطلبتها وتسجل الكثير من المصادر التاريخية رحلات الحجيج التي قام بها الأفارقة عبر توات، منها الرحلة الشهيرة للملك "كنكي موسى" [2] الذي مر بتوات في طريقه للحج سنة 725هـ/1325م وأوردت معها كثيرا من الأخبار والأساطير عن تلك الرحلة وما جرى حولها من أحداث، من ذلك ما ذكره محمود كعت من أن زوجته (أنار كنت) تمنت البحر بالقرب من توات فعمل لها حفرة كبيرة وأفرغ المياه بالقرب منها لتستحم وكان يبني في كل موضع ينزل فيه مسجدا، وبغض النظر عن صحة هذه المقولة من عدمها إلا أنه كان لرحلة ملوك السودان للحج أثرا كبيرا في توطيد العلاقة بين توات وتمبكتو.

كما ضمنت قوافل الحجيج كثيرا من العلماء والفقهاء الأفارقة من كانت لهم إسهامات وآثار بالمنطقة من دون شك، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الفقيهين الشيخ أحمد بن عبد العزيز القوراري، والشيخ محمد بن الشيخ أحمد بابا التنبكتي اللذان حجا رفقة الباشا علي بن عبد القادر (ت 1042هـ/1632م) بعدما أراد الحج سنة 1041هـ/1631م وكان معه ثمانين رجلا، وفي توات لحق به القائد الفلاني بن عيسى الرحماني البربوشي وأصحابه وأرادوا قتله لكنه استنجد بالفقيهين المذكورين فتركوه لحرمتهما ومكانتهما، بعد أن منعوه الحج وقتلوا عددا كبيرا من أصحابه، أما الفقيهين فقد واصلا طريقهما للحج[3].

1- جعفري امبارك، المرجع السابق، ص 13.

2- بسمة مزوري، الجاليات المغاربية في مدينة تمبكتو في عهد مملكتي مالي والسنغاي (5هـ-10هـ)،(11م-16م)، مذكرة ماستر،ج. قالمة، 2017، ص 36

3- جعفري امبارك، المرجع السابق، ص 194-195.

ومن العلماء الذين زاروا توات في مواسم الحج: الشيخ الحاج أبو بكر بن الحاج عيسى بن أبي هريرة الفلاوي (ت 1146هـ/1733م) حج عام 1121هـ/1709م رفقة الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي، كما حج سنة 1157هـ/1744م، الشيخ أبو بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي (ت 1199هـ/17785م) أتى معه إلى الحج بخزانة نفيسة من الكتب ومن دون شك نسخ أو استنسخ البعض من الكتب.

كان للحجاج الأفارقة أماكن محدودة يأتون إليها داخل توات في أوقات معلومة من السنة وهناك يلتقون بالطلبة والعلماء من الإقليم الذين يكونون في انتظارهم، وعندها يتم التبادل العلمي والإجازات والمخطوطات وأهم مراكز الالتقاء: زاوية الشيخ سيدي علي بن حنيني بزاقلو، زاوية كنته، زاوية الركب النبوي بأقبلي بمنطقة تديكلت، تسابيت، وزاوية عبد الله بن طمطم بأوقروت.

المطلب الثالث: تنقل السكان بين الحاضرتين

بحكم الطبيعة الصحراوية البارزة كان التنقل دائما بين سكان توات وتمبكتو والحواضر الأخرى السنة الغالبة لدى سكان الصحراء، وتذكر المصادر التاريخية أمثلة كثيرة عن هذا التنقل منها ما ذكره ابن بطوطة أثناء خروجه من بلاد السودان عائدا إلى المغرب أنه خرج معه أناس كثيرون من بينهم جعفر التواتي، ويصفه بأنه كان من الفضلاء، ومن الجهة الأخرى يذكر السعدي في "تاريخ السودان" أنه تخلف بتوات عدد كبير من أصحاب السلطان كنكي موسى أثناء رحلته للحج لوجع أصابهم في أرجلهم واستوطنوا هناك، كما كانت تمبكتو وكثير من المدن الإفريقية غاصة بالتواتيين ولم يقتصر التوافد البشري على الأفراد بل شمل قبائل بأكملها توزعت بين الحضارتين.

ومن البديهي أن التوافد البشري بين المنطقتين ضم عددا كبيرا من العلماء والأسر، وفي هذا المقام يذكر السعدي: "أنه كان في تمبكتو وحدها مقبرة ضمت خمسين تواتيا كلهم من الفقهاء والعباد"، وعلى المستوى القبلي تعد كل من قبيلة كنته وقبيلة فلان مقال للتمزذج البشري بين توات وتمبكتو[1].

تنقل قبيلة كنته نموذجا:

تعتبر منطقة توات الموطن الأول لكنته في الصحراء وتذكر الروايات التاريخية أن الشيخ عثمان بن يهس جد الكنتيين الذي يتصل نسبه بالفاتح الكبير عقبة بن نافع الفهري وصل إلى توات وأقام

1- عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 60.

بمنطقة عزي بمقاطعة فنوغيل، وبعد وفاته خلفه ابنه سيدي يحي الذي بدوره خلفه واد سيدي علب (15/14م)، والثلاثة دفنوا بتوات، وجاء بعد سيدي علي ابنه الشيخ سيدي محمد الكنتي (ق 9هـ/15م) الذي حملت عائلته اسمه وفي عهده بدأت هجرة الكنتيين إلى الصحراء، عاش هذا الأخير متنقلا بين توات إلى أدرار بموريتانيا، توفي هناك بإقليم (تازيازت) بعد أن خلفه ابنه سيدي أحمد البكاي (ت 909هـ/1504م) زعيما للقبيلة.

انتسب الشيخ البكاي للطريقة القادرية مما منحه سلطة روحية وزعامة على الكنتيين كانت السبب في تزعمهم على القبائل الصحراوية، وجعلت من كنته ينتشرون في ربوع إفريقيا، ينشرون الإسلام ويجاهدون في سبيل الله وشمل امتدادهم من توات إلى تمبكتو وتمبكتو خصوصا وإلى كنتا جنوبا ومن المحيط غربا إلى كيره تشاد شرقا، وفي وصف الشيخ أحمد البكاي يقول بول مارتي: "... فقد كان هذا أرومة كنته ومنشأ سموهم، والأساس الذي قامت فوقه قوتهم والسبب الأول لرفعة مكانتهم..." ، ليواصل بعده ابنه الشيخ سيدي عمر الشيخ (ت 960هـ/1553م) الذي أخذ الطريقة القادرية على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الرئيس الأعلى للطريقة في غرب إفريقيا.

كما تذكر المصادر التاريخية أن عمر الشيخ بعد أن ودّع المغيلي في توات، اتجه نحو بلاد تمبكتو متفرغا للتعليم، وكلما مر بقرية أو حي دعاهم إلى عبادة الله وعلمهم الأوراد واستمر على هذا الحال إلى غاية الوفاة، ليواصل رسالته من بعده لكن بحماس أقل ابنه الشيخ أحمد الفيرم (ت 959هـ/1552م)، وابن هذا الأخير الشيخ محمد الرقاد (ت 980هـ/1573م) والد الشيخ أحمد (ت 1062هـ/1652م) والذي عاد لتوات وبنى بها زاوية كنته الرقادية[1].

انطلق الكنتيون من توات باتجاه غرب إفريقيا حاملين معهم الإسلام واللغة العربية واختلطوا بالقبائل الإفريقية فأثروا وتأثروا ببعض العادات ..... مما ساعدهم على الارتباط بهذه المجموعات إلى جانب دورهم السياسي والديني، لعب الكنتيون دورا علميا لا يقل أهمية عن باقي أدوارهم الأخرى وإليهم يعود الفضل رفقة القبائل العربية الأخرى في نشر الإسلام بمدينة تمبكتو وأسسوا عدة زوايا

1- أمحمد مولاي، التجارة والرحلة ودورهما في التواصل العلمي بين توات وتمبكتو ما بين القرنين 11-12هـ/17-18م، مجلة الدراسات التاريخية و الإجتماعية – ج.نواكشط، ع5، 2015، ص 52.

ومراكز علمية مثل: زاوية لمخاتير بأزواد، زاوية أهل سيدي علواته، زاوية آل بابا حمد بن عابدين بواقادوقو ببيوركينافاسو[1].

ورغم انقطاعهم في أصقاع مختلفة إلا أن ارتباطهم بتوات ظل وثيقا وملازما لهم، لأنها تمثل بالنسبة لهم الركيزة والمنطلق لهم فيها قصور وزوايا وأملاكا كثيرة يترددون عليها دائما ومن الذين عادوا من الكنتيين لتوات: الشيخ أحمد ابن الشيخ الرقاد الذي جاء من واد نون بالصحراء الغربية، وأسس بها الزاوية الكنتية الرقادية سنة 999هـ/1591م، والشيخ محمد بن عبد الرحمن الهاميلي أبو نعامة (ت 1163هـ/1750م) الذي قدم من الساقية الحمراء وبنى زاوية أقبلي سنة 1130هـ/1718م.

1- أمحمد مولاي، المرجع السابق، ص 53.

خلاصة الفصل:

لم تكن بداية التواصل الحضاري بين توات وتمبكتو وليدة العصر الحديث بل كانت لها جذور تاريخية سابقة منذ العصر الوسيط، حيث تبلور دور توات كهمزة وصل بين شمال افريقيا وجنوب الصحراء والحواضر المجاورة لهما، كما ساعدها الموقع الاستراتيجي وتوفر الماء والأمن على ازدهار حركة القوافل التجارية وقوافل الحج وتنقل العلماء بينها وبين تمبكتو بل كان بعض حكام بلاد السنغاي مثل: منسى موسى يحجون نحو بلاد الحجاز في ركب ضخم رفقة مجموعة من العلماء ويلتقون مع علماء توات، حيث اشتهرت منطقة تيديكلت بوجود أدلاء يعرفون الطرق والمسالك الصحراوية كانوا يتقدمون ركب الحجيج ويقودون القوافل إلى غاية منطقة الحجاز.

الفصل الثاني

العلاقات الاقتصادية بين توات وتمبكتو

ما بين القرنيين (16_18م)

المبحث الأول: القوافل والمسالك التجارية

المبحث الثاني: المظاهر الاقتصادية والتبادل التجاري

المبحث الأول: القوافل والمسالك التجارية

المطلب الأول: القوافل التجارية:

عرفت الصحراء الكبرى حركة اقتصادية وتجارية واسعة منذ أقدم العصور، فرغم شساعتها لم تكن عائقا أمام تواصل الشعوب الإفريقية من الجنوب والشمال، وازداد هذا التواصل والترابط أكثر بعد انتشار الإسلام في غرب إفريقيا واستقرار بعض العائلات العربية في تلك الأقطار ليكون هذا العامل له دور كبير في تشجيع كل عوامل الترابط والتواصل.[1]

ويعتبر موقع توات في قلب الصحراء موقعا استراتيجيا، جعل منها نقطة أساسية في تجارة الصحراء حيث أصبحت معبرها الرئيسي، خاصة بعد تراجع مكانة سجلماسة نظرا للاضطرابات السياسية وانتشار قطاع الطرق على طول الطريق المؤدي إلى بلاد السودان من الجهة الغربية وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "أن هذا المسلك قد أهمل لما صارت الأعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها، فتركوا تلك، ونهجوا الطريق إلى بلاد السودان أعلى تمنطيط" [2]وهذا ما أكسب توات مكانة تجارية هامة، حيث وجدت بها الأسواق والقصور التي تعتبر نقطة ومحطة لتوقف القوافل التجارية.

لقد كانت توات خلال القرن 15م- 18م من أكثر المناطق نشاطا في تسيير القوافل التجارية بين بلاد السودان وبلدان الشمال الافريقي، وهو ما جعل الأوروبيين يولونها أهمية كبيرة فقد حل بها الرحالة الإيطالي أنطونيو مالفانتي سنة 851هـ/1447م، بغرض الوصول الى بلاد السودان والتعرف على تواجد أماكن الذهب هناك [3]، كما أن الحملة الشهيرة للمنصور الذهبي من أجل السيطرة على تمبكتو كان الهدف منها ان يضع يده على الطريق التجاري الأكثر أهمية وهو طريق توات، حيث أخضعها تحت سيطرته بالقوة وهذا ما يؤكده عبد العزيز الفشتالي في معرض حديثه عن توات وتينجورارين حيث يقول" والقطران توات وتينجورارين من أعظم أقطار المعمورة، بما جمعه من الأمم والقصور، أولهما أقرب إلى السودان والثاني يعد من أعظم وأ ضخم الأقاليم ، فقد كان أمام المنصور

[1] هوبكنز: التاريخ الاقتصادي لافريقيا الغربية، تر فؤاد بليغ، منشورات المجلس الأعلى، القاهرة، ط1، 1998،ص158.

[2] عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون عبد الرحمن: العبر و ديوان المبتدأ والخبر، بيروت، لبنان،ج7، ص118.

[3] عبد الله عباس: الدور الحضاري لإقليم توات، أعمال الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعتي أدرار وتيارت، العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، أدرار، 14-15أفريل2009، ص ص261-262.

طريقين للوصول إلى السودان أولهما توات وتنجورايين في الجنوب الشرقي، والأخر عبر الصحراء الجنوبي، إلى أنه فضل الطريق الأول شعورا بأهميتها.[1]

فالجوار الجغرافي لتوات وتمبكتو أحدث تقاربا وثيقا بين المنطقتين في مجالات كثيرة بدأ بالمجال التجاري الذي ازدهر كثيراً، وهذا ما أدى بالتجار التواتيين لاحتراف التجارة الصحراوية وأصبحوا يشكلون جاليات في تمبكتو تعمل في التجارة، وأن هناك أحياء خاصة في مدينة تمبكتو يسكنها تجار توات ووكلائهم وكانت القافلة التجارية تنطلق من قصور توات محملة بمجموعة من السلع كالتمر والقماش، المنسوجات، إلى جانب الكتب التي راجت تجارتها .

وعلى هذا الأساس كان التاجر التواتي منذ القدم له دراية بالفقه فكان يسير بتجارته لبلدان تمبكتو طالبا الرزق وناشرا للعلم في الوقت نفسه ، ومن جملة هؤلاء التجار نذكر على سبيل المثال لا الحصر الشيخ محمد الامريني التواتي (1008هـ- 1600م)، كما كان الشيخ حمو بالحاج لتواتي (1062هـ - 1654م) تاجرا في تمبكتو الى جانب التعليم والتدريس، وهناك من العلماء من مارس التجارة انطلاقا من الحاجة لتأمين نفقات الزوايا مثل الشيخ علي بن حنيني الأنصاري(1115هـ-1703م) صاحب زاوية زاجلو [2]، حيث ملك قافلة وصل تعدادها 900 جمل كلها تتجار ببلاد السودان تدر أرباحا تنفق على طلبة الزاوية وعابري السبيل.[3]

وهكذا يبدو لنا ان تجارة القوافل التجارية كانت من أهم العوامل التي ساعدت في انتقال العلم و العلماء لمختلف مناطق جنوب الصحراء و بالتالي انتشار الثقافة الإسلامية السمحة، ومن الواضح أن تجار توات كان لهم الأثر الكبير على السكان الأفارقة وهذا بفضل معاملاتهم المشبعة بالروح الإسلامية حيث حازت على إعجاب وثقة سكان تلك البلاد، مما كان له الدور الفعال في إنتشار الإسلام في تلك الأصقاع.

و يمكن القول أن قوافل الحج مثلت أهم وسائل الالتقاء و التواصل بين الضفتين وهذا بذون شك ما ساعد على ازدهار وتطور حركية تنقل العلماء و بالتالي تبادل العلوم و المعارف بين مختلف العلماء مما كان له الأثر الكبير في ازدهار الحركة العلمية ما بين القرنين 16م-18م، كما يمكن

[1] عبد العزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، راسة وتحقيق عبد الكريم، مطبوعات وزارة الأوقاف، المغرب، 1972،ص73.

[2] زاجلو: هي قرية من قرى بلدية زاوية كنتة تبعد عنها بـ5 كلم شمالاً وعن مقر ولاية أدرار بـ70 كلم جنوباً

[3] مبارك جعفري: العلاقات الثقافية بين توات وتمبكتو، مرجع سابق، ص263.

التوصل إلى نتيجة أكيدة وهي أن منطقة توات ظلت المنطقة الرئيسية لقوافل الحج من تمبكتو ولم تتغير طريقهم إلا بعد التوغل الاستعماري في الجزائر.

المطلب الثاني: الطرق والمسالك التجارية

لقد شكلت منطقة توات حسب موقعها المميز الذي يربط بين الشمال والجنوب نقطة تواصل بين مختلف الحواضر سواء الشم الية منها او الجنوبية وما كان لهذا التواصل ان يتم لولا وجود شبكة من الطرق والمسالك التجارية التي ربطت الإقليم بباقي المناطق ومن مختلف الجهات واغلبها هي عبارة عن مجاري الاودية الجافة والتي تجد بها ينابيع توفر الماء لسالكي هذه الطرق كما تنمو بها الأعشاب والحشائش،مما يوفر للمواشي غذائها واهم الطرق والمسالك التجارية انطلاقا من توات نجد[1]:

أ / من الشمال وتمر بتوات :

1-توات ← أقبلي ← عين الصفراء ← مشرية ← الخيثر ← ارزيو ← وهران.

2-توات ← اقبلي ← عين صالح ← ميزاب ← الاغواط ← الجزائر.

ب/ من الغرب وتمر بتوات :

1-توات ← اقلي ← ام درنينية ← قصبة المخزن ← مكناس ← فاس.

1 توات ← اقلي فقيف ← سلجلماسة ← تافلالت ← فاس.

2 توات ← قصبة تيزولين ← وادي درعة ← مراكش.

3 توات ← ارين ← ميزاب ← تلمسان ← فاس.[2]

ج/من الشرق وتمر بتوات :

1-توات ← ارسلمن ← الزريبة لمسقم ← تنغين ← غدامس ← طرابلس.

2 -توات ← اغستن ← وليد مسعود ← ارسلمن.

[1] أنظر خريطة لأهم الطرق التجارية التي تعبر الإقليم، الملحق رقم

[2] محمد حوتيه، توات والازواد خلال القرنيين 12 و13ه 18-19م، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ج1، د ك ع نت، الجزائر، 2007. ص33.

3- توات ← تنجقن ← امسارح ← امغيدة ← انتفوس
خلغام ← تارسيت ← عيدو ← فايوت ← غات ← فزان.[1]

اما من ناحية الجنوب والذي يتعلق بموضوعنا هذا نجد الطرق السابقة من توات تتجه للجنوب كما يلي:

1-توات ← حاسي حسدة ← حاسي البوز ← المالح ← رقلة
بير ذهب ← تنصر ← صبطي ← طرفية ← ندقوير ← تليق
تاودني ← تمبكتو.

2-توات ← القبلي ← مراقف ← والن ← الاربعمئة
تجنوب ← اشوراد ← انافيس ← اماهور.

3-توات ← مراقن ← اولف ← تنزروفت ← البرج
حاسي باكتليس ← تساليت أقاهوك ← أنافيف ← تبنكورت ← بوراغن ← غاو.

وعليه يمكن ملاحظة أن توات تتوسط أربعة مدن وهي:

1 غدامس شرقا، وتبلغ المسافة بينها وبين توات 27 يوما.

2 تمبكتو جنوبا، وبينها توات 29 يوما.

3 فاس غربا، وبينها وبين توات32 يوما.

4 - مدينة الجزائر شمالا، وبينها وبين توات 30 يوما . وهذا الموقع الاستراتيجي للمنطقة أهلها لأن تكون أهم منطقة لتجارة القوافل ذلك أنها تتوسط مفترق الطرق بين الشمال و الجنوب، كما كان هذا الموقع في المقابل أحد الأسباب الرئيسية وراء تزايد الأطماع حوله ومحاولة ضمه و السيطرة عليه.

المطلب الثالث: التجارة الصحراوية:

قامت التجارة الصحراوية بدور كبير في بناء الاقتصاد لطبيعة السلع القادمة من افريقيا جنوب الصحراء وكانت هناك عدة طرق تربط الشمال بالجنوب وكان هذا الارتباط يعود إلى أزمنة غابرة تعود عللا الأقل إلى عهد الإمبراطورية الرومانية هذه الأخيرة التي اشتهرت ببناء العديد من الطرق التي كانت تتوغل في مجاهل الصحراء في بلاد السودان وقد تفاوتت أهميتها بين فترات زمنية مختلفة فقد

[1] محمد حوتيه، المرجع السابق، ص35.

كان المسلك الغربي عبر سجلماسة من أنشطة المسالك والتي تفرعت منه عديد من الطرق التجارية. التي كانت لها الأثر وبالإضافة ألة هذا المحور نجد المحور الأوسط الذي يمر بتوات هذا الأخير الذي كان ظهوره بسبب بعض التحولات الاقتصادية التي تعرض لها المحور الغربي.

لقد كانت الحركة التجارية عبر توات وتمبكتو نشطة جدا، وكانت توفر المواد الناقصة المنعدمة في كلا الجانبين ودفعت الكثير منه إلى قطع مسافات طويلة وشاقة من أجل الحصول على ثروة متناسين في الوقت ذاته الأخطار التي كانت تهدد حياتهم .

ولكن رحلة القوافل التجارية عبر الصحراء لم تكن دوما سهلة بل كانت تواجهها مشاكل ومخاطر قد تؤدي بأفراد القافلة الى الهلاك ويمكن أن نصنف هذه الاخطار إلى مخاطر طبيعية ومخاطر بشرية .[1]

أ. المخاطر الطبيعية

1.مشكل الماء والمؤونة: فكانت ندرة الماء ونفاذه من أصعب المشاكل التي تواجه القوافل التجارية العابرة للصحراء فاستمرارها متوقف على هاته المادة الحيوية، ولهذا كان التجار يختارون الطريق الذي توجد به أكبر عدد من الآبار والتي لا تبعد واحاته عن بعضها كثيرا والحفاظ على الماء وعدم التبذير وكذا تغليف القرب حتى لا يتبخر ما بها من ماء .

وتلجأ القافلة أحيانا إلى التضحية ببعض الجمال وذلك لما تحتويه بطونها من الماء الذي تتدخره لوقت الحاجة، وقد يلجأ التجار أحيانا إلى شراء الماء إذا تطلب الأمر .

أما المؤونة فلا تقل أهميتها عن الماء ولهذا اختار التجار الطرق التي تؤدي الى المراعي. وكانوا يأخذون أيضا جمالا محملة بالعلف وهذا لضمان جمالهم.

2.مشكل الرياح والعواصف وصعوبة التضاريس: تتعرض القوافل التجارية لبعض الكوارثالطبيعية الناجمة عن العواصف والرياح وهذا مايؤدي إلى طمس معالم الطريق وذلك بسبب نقل الرمال من مكان إلى آخر.

بالإضافة الى مشكل الرياح تتعرض القوافل الى عوائق التضاريس تمثلت بالخصوص في الحمادة التي تعد من اصعب مكون تضاريس يمكن أن يواجه القوافل التجارية حيث يغلب عليها استواء وبه أرض صلباء يصعب على الجمل السير فيها بسهولة.

[1] فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص78.

3.مشكل الضياع: من الاخطار التي تواجه القافلة أو بعض أفراد القافلة الذين يتأخرون في السير هو مشكل الضياع والتخلف عن البقية فتصبح معالم الطريق مجهولة ويصبح السير بلا وجهة بسبب انتقال الرمال من جهة الى أخرى بفعل الرياح لتصل أحيانا بالضائع في الصحراء الى الموت.

ب المخاطر البشرية:

خطر قطاع الطرق: لم تكن التجارة في الصحراء تخضع للإجراءات الحدود و التفتيش و الاشراف الحكومي بشكل مباشر، فان التاجر يواجه دائما المخاطر في طريقه بما في ذلك خطر السطو والنهب فالقوافل مضطرة الى سلوك طرق معينة وهذا الامر يسهل كثيرا من مهمة قطاع الطرق والقبائل التي تعيش على السلب والنهب.

ان الخطر الذي شكله قطاع الطرق على القوافل التجارية دفع بالتجار إلى اصطحاب من يحمي القافلة وقد كان لقبائل صنهاجة الصحراوية دورا كبيرا في حماية مختلف القوافل التجارية العابرة لمجالها، كما سعى سلاطين تمبكتو لتوفير الأمن للمسالك الجنوبية والذي استمر طيلة القرن 18هـ - 14م.[1]

[1] فرج محمود فرج ،المرجع السابق، ص 79.

المبحث الثاني: المظاهر الاقتصادية والتبادل التجاري

المطلب الأول: المبادلات التجارية:

تعتبر توات مركزا تجاريا هاما خلال العصر الحديث باعتبار موقعه المتميز والذي يعد المحور الطبيعي لتجار المنطقة ودول جنوب الصحراء، وبضائع دول الجوار حيث شكلت حلقة وصل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب عبر الصحراء الكبرى، وتكمن أهمية تلك المحطات التجارية في كونها تتوفر على المصادر المائية والكلى للدواب وكذا المؤن والزاد للرحالة، إضافة الى موقعها المتوسط للصحراء، وقد تجاوزت الأقاليم التواتية ذو المعابر والممرات الى دور اهم حين أصبحت منطلقا للقوافل التجارية المحلية التي يديرها أصحابها بأنفسهم او يختارون من يسيرها نيابة عنهم في رحلة الشتاء الى بلدان السودان.

أسواق توات:

لقد أشار دوماس daumas الى ان أسواق توات تخضع لتنظيم من حيث عرض السلع والبضائع، حيث تحيط بها مجموعة أبواب من خلفها أماكن تعرف بالرحبات، كرحبة الجماعة والمستور اين يلتقي التجار و يتبايعون فيما بينهم ، مع ان كل رحبة تخصص لبضائع وسلع معينة كرحبة المواد الغذائية ورحبة الجلود والاقمشة وحتى الاقمشة وغير ذلك من المواد التي كانت تجلب من تمبكتو وقد استفاد سكان توات من موقع إقليمهم الذي يتوسط التجارة العابرة للصحراء، حيث أصبحت اسواق توات بمثابة نقاط التقاء وتجميع القوافل العابرة للصحراء الجزائرية في قسمها الغربي، ومن البديهي القول ان لكل مدينة او قصر سوقا تعقد فيه العمليات التجارية سواءا بالبيع او المقايضة وهو ما جعلها المكان المفضل الذي يقصده أصحاب القوافل التجارية من خارج الإقليم خاصة تلك القادمة من تمبكتو .

أسواق تمبكتو:

يذكر روني كاريه rené caillé أن مدينة تمبكتو لا يوجد لديها مصدر للثروة ما عدا التجارة في الملح، كما ان تربتها غير صالحة للزراعة لذلك فإن التجارة بها نشيطة جدا، ومن بين السلع التي تباع في أسواقها الملح والماء الذي يباع بواحد كوري، بالإضافة الى الحطب المستعمل [1]

[1] صالح بوسليم، المؤسسات الثقافية بإقليم توات (دراسة تاريخية من خلال وثائق محلية، أثناء القرنين19/18م، أطروحة دكتوراه في التاريخ، إشراف محمد مجاود جامعة بلعباس، 2008، ص 130.

الأشغال رغم قلته حيث يجلبونه من مدينة كابرا، ونفس الشيء بالنسبة للمؤن الضرورية كالقمح والشعير والأرز، الذرة البيضاء، الزبدة النباتية، العسل، القطن، القماش، الأدوات الجاهزة، الشمع، الصابون، الفلفل ، السمك الجاف، الفستق... وغيرها، التي تجلب من أسواق مدينة جني (jenne) والأسواق المجاورة، وقد قدر فليكس ديبوا Fleix Dubois حجم الأموال المتداولة في تمبكتو سنة1895م بمقدار 460 الف فرنك، وقال أنها لاتمثل إلا الثلث من المبلغ الحقيقي وربما تصل إلى 20 فرنك فرنسيي، وتم تقييم حجم التجارة بها سنة1898م بحوالي مليونيين وسبع مائة وستين الف 276000فرنك دون احتساب تجارة الأرز التي تعرض للفيضانات.[1]

يذكر المستكشف الفرنسي روني كاييه Rene Caille ان سوق جونييه يحتوي على كميات كبيرة من السلع والبضائع مما هو ضروري للعيش، ويخضع للتنافس المستمر بين التجار الأجانب وسكان المدن المجاورة، كما يوجد به نظام الصفوف لعرض السلع، حيث يضع التجار سلعهم بسلال مضوعة بشكل دائري، بالإضافة لهذا فان سوق جونييه يقدم تجارة حقيقية بدل من نظام المقايضة البدائي كما هو معمول به في القرى، خاصة وانه يتوفر على الكثير من السلع والبضائع الأوروبية مثل الخرز والعمبر والمرجان والكبريت والبنادق.[2]

ويذكر فليكس ديبي ان سكان تمبكتو يرون ان مدينة جنييه هي المنتج وان مدينة تمبكتو هي المستودع، لان هذه الأخيرة سكانها وسطاء وأقل ثروة من سكان جنيه، غير أن هذا لم يمنع تمبكتو من أن تصنع لنفسها مكانة تجارية ، خاصة أن القوافل التجارية القادمة من توات وبالضبط من الشمال كانت تزود أسواق تمبكتو بكل ما يبحث عنه في تمبكتو، وقلما تواصل طريقها الى جني رغم رخص أثمان السلع والبضائع في أسواقها.

والى جانبي سوقي تمبكتو وجني نجد مركز أروان Arouan الذي كان بمثابة نقطة التقاء لمختلف القوافل التجارية، ينتمي روادها الى طوارق النيجر والى قبائل الكونتاسو والبرابيش الذين هم من منطقة تمبكتو، وما يميز هذا المركز أنه يزود القوافل بالماء بالإضافة الى أنه يتوفر على مناطق واسعة قد تستغل للرعي، والجدير بالذكر هنا أن القوافل التي تخترق الصحراء لا تسير في خط مستقيم تخضع

[1] فيليكس ديبوا، تمبكتو العجيبة، تر: عبيد الله عبد الرزاق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، ص 120.

[2] فيليكس ديبوا، المصدر السابق، ص 144 – 145.

للتعريج على نقاط المياه والواحات، كما يلتوي خط سيرها بسبب الظروف الطوبوغرافية مثل الدوران عبر الجبال وتجنب الوديان.[1]

المطلب الثاني: وسائل التبادل التجاري

كانت تتم التجارة بين توات وتمبكتو والحواضر المجاورة بواسطة طريقتين رئيسيتين:

1. المقايضة:

كان التعامل بصفة عامة بين تجار توات وتمبكتو، يتم بطريقة المقايضة منذ أقدم العصور وهي احدى وسائل التبادل التجاري بحيث تكون المبادلات عينية الى مبادلة سلعة بسلعة أخرى ويترك للطرفين تحديد قيمة كل سلعة امام الأخرى وغالبا ما توضح عملية التحديد المذكورة للعرض والطلب والسعر اليومي لسلعة.

وبما أن إقليم توات يقع على الطريق التجاري الرابط بين الشمال و الجنوب فإن معاملاته لا تختلف عنها في تمبكتو فهي تقوم عن طريق المقايضة، وهذا النظام كان العمل به على نطاق واسع في الإقليم، فساهمت توات بمنتوجاتها الزراعية في المبادلات التجارية بقيام تجارة إقليمية بين الواحات على أساس المقايضة وساهمت أيضا في ترويج المنتوجات الأخرى بينها و الأسواق الشمالية.

وهناك نوع من المعاملات التجارية ذكرته المصادر الأولى للرحلة والجغرافيا يسمى الشيكيات والذي تحدث عنه البكري في مؤلفه في قوله" وتبايع أهل السلى انما هو بالبذرة والملح وحلق النحاس وارز اللطاف من القطن يسمونها الشيكيات وهي أنفق ما عندهم.

وكان التجار لا يحملون معهم طعاماً كثيرا يكفيهم في توغل إلى بلاد السودان فكانوا يحصلون على ما يريدون من الطعام من خلال ما معهم من خلال استبدال ما معهم من قطع الملح.

وفي توات كانت السلعة الرئيسية التي يتم التبادل عليها مع تمبكتو هي التمر بجميع أنواعه [2] لكثرته في المنطقة .

[1] إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 60.

[2] أحمد الصافي جعفري، توات وأبحاث في التراث، المرجع السابق، ص 404.

2. العملة:

ان ازدياد الحركة التجارية وتضاعف نشاطها وازدهارها أدى بالبحث عن تعامل جديد في المبادلات التجارية أكثر دقة من عملية المقايضة، فبدأت تظهر النقود كمعاملة تجارية جديدة وذلك لثبات قيمتها.

كما هي تعتبر مقياس لكل تعامل مالي سواءا على المستوى المحلي أو الخارجي كما أن لها مدلولا حضاريا لا يمكن إهماله فهي تغطي الصورة الصادقة لتطور المجتمعات ويعكس الدور الاجتماعي في المدى تداولها والتعامل بها.[1]

وفي إقليم توات لم تتحدث المصادر عن تداول العملة أو ضربها إلا في فترات متأخرة حيث ترك هذا الموضوع العديد من الأسئلة حول أسباب تأخر سكان توات في ضرب السكة أو التعامل بها واستمرار التعامل بالمقايضة.

وتشير بعض المراجع التي رجحت بأن اليهود المستقرين بتوات ضربوا السكة [2]بحكم استقرارهم بتمنطيط والسيطرة على التجارة الداخلية والخارجية بالمنطقة وتجارة الذهب بصفة خاصة حيث امتهنوا صناعة الذهب والفضة .

هذه المعلومات التي تحصلنا عليها في إقليم توات ليست كافية لإعطاء نص قطعي بضرب السكة في الإقليم، فالبرغم من أهميتها إلا أنها تبقى ناقصة، لأنها لم تبين لنا مانوع هذه السكة ولا شكلها ولا قيمتها ولا حتى الروسومات أو العبارات المنقوشة عليها.

أما عن وجود العملة في مناطق جنوب الصحراء فقد وردت في عدة مصادر ذكر بعض الإشارات لكنها لاتعطينا فكرة كاملة عن وجود عملة المسكوكات "فابن حوقل" مثلا قدر ثمن حمولة الملح ببلاد تمبكتو بالدينار[3].

كما ان استمرار التعامل بالمقايضة يلعب دورا في هذا المجال فبالرغم من الازدهار الذي عرفه التبادل التجاري بين منطقتي توات وتمبكتو هذا الإقليم في هذه الفترة والذي أصبح يلعب دورا رياديا

---

[1] محمد صالح حوتية، توات والزواد، المرجع السابق، ص 162.

[2] الهادي مبروك الدالي: التاريخ السياسي والاقتصادي والإفريقي فيما وراء الصحراء من نهاية الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999، ص 301.

[3] ابن حوقل، المصادر السابق، ص 98.

في مجال التجارة الصحراوية بحكم تحول الطرق التجارية إلى الشرق ومرور بصفة خاصة عليه إلا ان عملية المقايضة هي التي استمرت في التعاملات التجارية الى فترة متاخرة.

المطلب الثالث: السلع المتبادلة

1. أهم السلع المتبادلة:

لقد شكلت منطقة توات نقطة عبور رئيسة للعديد من القوافل التجارية الحاملة معها مختلف السلع بغرض مبادلتها مع تجار تمبكتو رواجا كبيراً والعكس من ذلك، وقد بينا في ما سبق الأهمية التي تكتسبها توات كحلقة وصل بين الشمال والجنوب كونها تتصل بها مختلف الطرق التجارية ونظرا لما حققته التجارة مع تمبكتو من ربح وفير فقد مثلت نقطة استقطاب من التجار الذين قصدوها من كل البقاع وقد تنوعت السلع حسب احتياجات وامكانيات كل طريق وفي ما يلي استعراض أهم السلع:

أ -مادة الملح :

تمثل مادة الملح عند سكان تمبكتو ما يمثله الذهب لدى تجار الشمال وهذا راجع الى افتقار المنطقة الى كميات تغطي حاجات السكان من هذه المادة الهامة [1].والتي تستعمل في طهي الطعام وتمليح الأسماك والحيتان ليتم اذخارها [2] كما كان يستعمل الملح كمقايضة [3] تظهر حاجة ماسة للملح بحيث لا يمكن الاستغناء عنه، حيث يذكر ابن بطوطة ان اهل تمبكتو كانوا يتصارفون به كما يتصارف بالذهب والفضة إذ لا تقل أهمية عن الذهب، ولذالك يتناولوا في مبادلته بالذهب وزنا بوزن.

اذا كان حمل الملح في ايولاتن بعشر مثاقيل الى ثمانية، وبمدينة المالي بثلاثين مثقالا الى عشرين وربما ينتهي الى أربعين مثقالا[4]وبتمبكت ثمانين مثقالا. [5]

ان هذا الغلاء الذي يتميز به هذا النوع من السلع كان يرجع على التجار عموما وتوات خصوصا بالثورة الوفيرة وسعياً وراء الربح.

---

[1] بوفليح، المرجع السابق، ص 131.

[2] الإدريسي، المصدر السابق، ص 20.

[3] البكري، المصدر السابق، ص 183.

[4] ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 684.

[5] ا لوزان، المصدر السابق، ج2، ص 166.

ب-النحاس

يصنف معدن النحاس في المرتبة الثانية من حيث الأهمية التي تكتسيها السلع المصدرة للسودان الغربي [1]، بالاعتبار ان النحاس من المعادن المهمة والقليلة بتمبكتو مقارنة بالذهب [2]ربما هذا ما يفسر الحاجة الى استيرادهوقد دلت مختلف المصادر العربية على ان النحاس من ضمن السلع التي حملها تجار المغرب الأوسط الى تمبكتو بالرغم من تكدا عرفت بانتاجها الوفير للمادة، حيث يقول في هذا الصدد ابن بطوطة " ويحمل النحاس منها الى مدينة كوبر من بلاد الكفار الى زغاري والى بلد برنوا" [3].

من خلال ما جاء في المصادر يمثل الاستعمالات معدن النحاس في مجالات شتى من ذلكم انه استعمل لأغراض الزينة، فقد كانت تتخذ هالنساء السودانيات كحلي متمثلة في الاساور والخواتم والحلق وغيرها مما تتزين به المراة كالعادة [4].

بالضافة الى هذا فقد استعمل اهلبلاد السودان النحاس في الصناعات الحربية منها اغمدة السيوف والرماح ولوازم للخيل كاللجام وحلقة القدم من السرج وكذا صناعة الاواني المنزلية ومختلف الاشكال الفنية كالاقفال وحلق الأبواب [5].

ج-المخطوطات والكتب:

إن الأبحاث التي قام بها المخابر المخطوطات تبرز بوضوح انتقال عدد هائل من المخطوطات لمغربية إلى تمبكتو لعل انتقالها كان سبب بيعها في الأسواق فمثلا بعض كتب المغيلي، الاربعون المغيلية تم العثور عليها في موريتانيا وهي الآن في مركز أحمد بابا تمبكتو بالإضافة إلى الرسالة في أمور السلطة وهي في جامعة أبدان بنجيريا [6]على الأرجح أن تكون هذه المخطوطات انتقلت من أسواق توات.

---

[1] حسين بوبيدي، دور محور الأوسط، مرجع السابق، ص 241.

[2] الهادي مبروك، المرجع السابق، ص 284.

[3] ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 705.

[4] البكري، المصدر السابق، ص 173.

[5] عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص 33.

[6] عبد الرحمان حمادو الكتبي، مع المغيلي محمد ابن عبد الكريم الإمام" صاحب نازلة اليهود "حقائق ووثائق، البلاغ للنشر وتوزيع وأبحاث، الجزائر، 2013، ص 103 – 104.

د-المنسوجات:

لقد كان منطقة تمبكتو مثل جنى معروفة بالحرف النسيجية غير أنها لم ترق إلى المستوى المطلوب من حيث كمية الإنتاج ونوعيته وهذا ما فسح للتجار إلى ضم المنسوجات باختلاف أنواعها إلى قائمة السلع المتبادلة مع تجار توات[1] فقد كانت المنطقة مزدهرة من ناحية النسيج القطني فكثرت المحايك والحياكون في مختلف المدن والقرى وقد شكلت المنسوجات القطنية معظم لباس أهل تمبكتو. بالإضافة إلى منسوجات من الحرير الطبيعي منها مانسج ببلاد المغرب ومنها الوارد من أوروبا خاصة البندقية وجنوة والاندلس.

هـ. المصنوعات الزجاجية والحديدية:

كان ضمن ما حملته القوافل التجارية من توات في اتجاه تمبكتو سلع مصنوعة من الزجاج والأخرى من حديد. فقد أشارت العديد من المصادر التي تصدر هاتين السلعتين إلى تمبكتو. فيذكر أن الزجاج يأتي به التجار إلى تمبكتو ليبادلوه بأشياء أخرى.[2]

ويورد الإدريسي أن من حلي أهل السودان خرز، الزجاج وأنواع من الزجاج المؤلف والأرزاق وحلق وخواتم النحاس وغيرها من صنوف النظم الزجاجية وبطبيعة الحال ليتم جلبها من التجار المغاربة[3] هذا بالإضافة إلى كؤوس وحبات الأسباح وكرات صغيرة تدرج في عقود للأعناق أو الأيدي تتزين بها النساء خاصة وبعض الرجال [4] وتصنع كذلك من الزجاج القناديل وقوارير العطور وكانت هذه البضائع غالية الثمن ولا تقبل على شراءها إلا مسيورين من تجار والولاة والقضاة.[5]

أما فيما يخص المصنوعات الحديدية فقد صدرت عبر توات لأن الحديد المصنوع والتي استعملت للأغراض شتى فمنها من استعمل للحروب كالسيوف والخناجر والرماح. ومنها من استعمل في مجال الفرحة كمعاول الحرث والفؤوس والمناجل بالإضافة الى ما يستعمل لتحضير الخيل كالأزمة والحدب كما كانت المصنوعات الحديدية تستعمل كحلق للأبواب.

---

[1] الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 285.

[2] مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تج: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة،1995، ص 5.

[3] ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 12.

[4] عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 223.

[5] محمد الغربي، المرجع السابق، ص 446.

و. الودع والسلع الأخرى:

الودع نوع من الصدف كان في القديم يجلب من الهند [1] استعملت هذه القواقع كعملة لفترة طويلة وكانت تستورد من جهات متعددة [2]استعمل الودع في تعويض الذهب البيع والشراء أحيانا ويقدر بالذهب كذلك، كما أنها قد تتخذ كحلي شائعة الاستعمال في المجتمع السوداني.[3]

ومن بين السلع التي صدرت الى بلاد تمبكتو عبر توات المحلي الذي كان من مصنوعات المنطقة[4] والتي حملت إلى بلاد تمبكتو حيث تنوعت معادن صناعتها فشكلت من نحاس أو فضة ممزوجة بالذهب. وبعضها صنع من الذهب الخالص الذي جلب أصلا من تمبكتو كمادة غير مصنعة بعد، وقد اشتهر المجتمع السوداني بولوعيه بأصناف محلية سواءا قلائل أو الأقراط أو الأساور والذي كان التجار يحرصون على حملها إلى بلاد السودان.[5]

أما عن قطع المرجان فقد كانت تأتي إلى المغرب من مصر والسودان الشرقي وبعد أن تضاف إليه الحجارة الكريمة تصدر إلى بلاد تمبكتو [6] وقد حملها التجار في قوافلهم ونجد استعمالها للزينة بشكل خاص وتميزت بأثمانها المرتفعة.[7]

ومن خلال ما تم بيانه حول أهم السلع التي حملها التجار إلى بلاد تمبكتو يتضح لنا أن منطقة توات لها دور كبير في تدليل الصعوبات لنقل هذه السلع سواء من خلال احتضانها لمختلف التجار المارين بها أو السالكين لمختلف الطرق التي تربطها بتمبكتو وتوفر كل من شأنه أن يخفف عن هؤلاء التجار عناء ومشقة السفر وهذا ماجعل تجار المغاربة حرصين على تسيير العديد من القوافل المحلة بأنواع مختلفة من السلع وذلك لما في هذه التجارة من ربح وفير وثراء كبير.

---

[1] عبد القادر زيادية، المرجع السابق، 223.

[2] الهادي مبروك، المرجع السابق، ص 332.

[3] عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 220.

[4] الغربي، المرجع السابق، ص 448.

[5] عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 223.

[6] محمد الغربي، المرجع السابق، ص 449.

[7] عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 220.

2- سلع تمبكتو إلى الشمال عبر توات:

ارتبطت توات بعلاقات تجارية مميزة مع تمبكتو ويشهد على ذلك العدد الكبير للقوافل التجارية وكذا حجم التبادل الذي ضم سلعا متنوعة. يتساءل البعض عن سبب اختيار تجار المغارب للسفر الى هذه البلاد البعيدة في ظروف أقل ما يقال عنها قاسية وصعبة هددت حياة الكثير من هؤلاء التجار ويأتي الجواب أن غناء بلاد تمبكتو بمعدن الذهب هو ما لفت إليه أنظار التجار وغيرهم خاصة إذا قلنا أن الوصول على هذه البلاد والعودة منها بسلام يعني لهؤلاء التجار بتحقيق أرباح طائلة وثراء فاحشا.

بالإضافة إلى سلع أخرى لا تقل أهمية عن الذهب كتجارة العبيد وسلع أخرى تصدرها بلاد السودان عبر توات نقطة التقاء بين الشمال والجنوب.

ا-الذهب

لقد شكل الذهب أهم سلعة ينقلها تجار الجنوب نحو أسواق توات حيث اعتبر لمحرك الرئيسي للتجارة بين ضفتي الصحراء. وأول سلعة مطلوبة وما نلاحظه من خلال المصادر العربية هو تركيزها وبشكل كبير على هذه السلعة وقد قدمت لنا في ذلك معلومات كثيرة وهامة ويتضح لنا مما أوردته أن معدن الذهب لم يكن يتصرف فيه من هب وذب وإنما كان تحت تصفر الامراء والملوك الذين كانوا يحتكرون النفيس منه واقل قيمة تأخذه الرعية.[1]

وقد عرف الذهب بتوات بالرخص على حسب قول العياشي "أن الذهب فيه أرخص"[2]

ويكون الذهب المادة الأساسية للحركة التجارية بين الشمال والجنوب كما ذكرنا سلفا. والذي عرف رواجا كبيرا في منطقة لاستعمالات مختلفة في صناعة الحلي المتنوعة.فقد كانت القوافل التجارية تجلبه من تمبكتو بكميات كبيرة لطلب عليه و تتم تحويله للشمال لتسويقه في الأسواق المحلية والحواضر المجاورة او تصديره لأوروبا. ذلك لأهمية الذهب باعتباره من اهم السلع الفاعلة في تجارة العالية والأهمية الكبيرة في ضرب السكة.

[1] الدالي مبروك، المرجع السابق، ص 320.

[2] العياشي، المرجع السابق، ج1، ص 79.

ب-العبيد

من بين السلع السودانية التي لا تقل أهمية عن معدن الذهب نجد العبيد هذه السلعة التي يرى البعض انها خط متوازي مع تجارة الذهب.بل هناك من يعتبرها اهم من الذهب في حد ذاته ، والدليل على وجود العبيد في إقليم توات هو دخولهم في التركيبة السكانية للإقليم وتم المزج الكبير منهم، في مجتمع التواتي بعد أن دخلوا بعدة طرق هناك من جاء مجلوبا إليها ومنهم من دخل عن طريق قوافل تجارية لكن هناك من الفقهاء في توات من حرم بيعهم والتسري بنسائهم على اعتبارهم أحرار. أن هذه الفتوى التي جاء بها فقهاء توات جعلت هذه الفئة تشكل مجتمع تواتي كما ذكرنا سلفا.

ج -العاج:

لقد كان الطلب على أنياب الفيل الإفريقي الشديد لأنه أقل صلابة من سواه وأكثر طواعية في النقش من أفيال شبه الجزيرة العربية التي كانت صلبة للغاية وقد شكلت هذه الأنياب المادة الأولية لصناع لعاج. والذي اعتبر من المواد الغالية الثمن، ويعتبر من المنتوجات المطلوبة من تمبكتو فتباع في أسواق توات اويتم تصديرها إلى أسواق الشمال ومنها إلى أوروبا.

إن اهتمام التجار بهذا النوع من السلع يرجع بالأساس إلى استخدامه في مجالات الصناع الفنية كالترصيع والتطعيم لاسيما حشوات المنابر وفي قطع الأثاث والأبواب وحوامل المصاحف وأواني الشرب وزينة الخيول.[1]

د-ريش النعام وبيوضه:

يوجد طير النعام في تمبكتو بكمية كبيرة [2]جعل التجار يقبلون عليه من أجل ريشه وبيضه حيث كانت تجلب القوافل التجارية ريش لنعام إلى إقليم توات، من تمبكتو الذي كان يصدر إلى البلدان المجاورة ومنه إلى أوروبا ولقد لقيت هذه السلعة رواجا كبيرا في الأسواق بكثرة استعماله [3]. إذا كان ريش النعام يستعمل كحشو للأرائك والمخاد[4] كما اتخذ كمراوح وفي المفروشات والزينة وفي لعض الأحيان تضعه القبائل على خيم لبيان شرفها ومكانتها.

---

[1] حسن يوبيدي، دور صنهاجة، المرجع السابق، ص80.

[2] حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص276.

[3] هشام بهلول، الجنوب الجزائري في أدب الرحلة أبي سالم العياشي نموذجا(1072-1074 هـ) (1661-1663م) اشراف جملة معاشي، مذكرة لنيل درجة ماستر في تاريخ تخصص الريف والبادية، جامعة قسنطينة2 (2012-2013)، ص81.

[4] عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص33.

أنما فيما يخص بيض هذا الطائر فقد كان يصنع من محه بعض الأدوية والعقاقير ويتداوى بها ويوضع على منافذ كما يعلق على الحيطان والأبواب من أجل الزينة وكانت أثمانه مرتفعة خاصة في أسواق خارجية.[1]

هـ- سلع أخرى:

كما جلب تجار توات من تمبكتوو مادة الشبالتي تستعمل في استخراج بعض الأصبغة الخاصة الارجواني و الوردي وأيضا بعض التوابل التي تشكلت في تلك الفترة دواء لبعض الأمراض وقد كانت تباع في صيدليات ، وتتكون منها جميع العقاقير التي تحتويها وصفات الأطباء . ولهذا كانت أثمانها مرتفعة.[2]

حيث كان التجار يجنون من ورائها أرباحا كثيرة، ولهذا نجدها من أحمال التجار الخارجين من بلاد السودان[3]. كالفلفل الأحمر وبعض أنواع الأباريز .

بالإضافة إلى العسل الموجود بكثرة ببلاد السودان، وكذا مادة الصمغ[4] والخشب الأبونيس الذي احتل المكانة الكبرى أو الأولى في نوعية جودته، وكذا شجرة كور التي لا يوجد لها مثيل ببلاد المغرب الإسلامي، وشجرة كنكو والتي يستخدم خشبها للبناء[5] وكحل العين.[6]

[1] عمر نعمان بوعصبانة، المرجع السابق، ص176.

[2] محمد الغربي، المرجع السابق، ص451.

[3] حسن يوبيدي، ، المصدر السابق، ج2، ص276.

[4] عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص44.

[5] محمد حسن نبيلة، المرجع السابق، ص213.

[6] البكري، المصدر السابق، ص158.

خلاصة الفصل:

مما سبق يتضح لنا أن منطقة توات لعبت دورا كبيرا في التقارب الاقتصادي بين تمبكتو والحواضر المجاورة لها حيث كانت معبراً مهماً من الناحية التجارية والاقتصادية .إذ أن معظم السلع المتبادلة بين الجانبين كان لابد لها أن تعبر على منطقة توات، كونها نقطة عبور هامة في التجارة بين الشمال والجنوب. ناهيك عن المساهمة الكبيرة لتجار توات في توفير مختلف السلع لبلاد المغرب الأوسط، والتي تجلب من السودان وكذا السلع محملة من الحواضر الأخرى المجاورة إلى تمبكتو، وهذا ما سمح بتحقيق تكامل إقتصادي بين الأحواز المجاورة ومناطق جنوب الصحراء.

الفصل الثالث

الروابط الاجتماعية بين توات وتمبكتو

المبحث الاول: الرحلات التواتية إلى تمبكتو وبلاد تمبكتو.

المبحث الثاني: مظاهر الحياة الإجتماعية في توات وتمبكتو

المبحث الأول: الرحلات التواتية إلى تمبكتو:

المطلب الأول: الرحلات العلمية

اتخذ الجانب الإجتماعي بين إقليم توات وتمبكتو شكلين هما رحلة العلماء واستقرار الجالية التواتية بتمبكتو بغرض التجارة إذا كان لعلماء توات رحلات علمية في الفترة 08 و 10 هـ /14-16م وتعد رحلة الشيخ عمر بن محمد والبازي 872هـ-1468م من أقدم الرحلات التي قام بها علماء توات إذا نزل بولاته ودرس بها.

لقد كان لعلماء توات دور في نقل الإشعاع العلمي وتشييد صروح التمدن والحضارة إذ يؤكد اغلب المؤرخين على دورهم الفعال في نضج وقوة الممالك الإسلامية منذ بواكير القرن 15م.[1]

ويظهر لنا من خلال ما سبق إن هجرة علماء توات كانت مبكرة حيث تجند بعضهم للدعوة الإسلامية وساهموا في نشر الإسلام واللغة العربية كيف لم يكتب لهم النجاح الذي حقق الشيخ ب عبد الكريم المغيلي هناك والذي طغت سمعته على منن سبقوه في الدعوة قبل القرن 15م إذ يعد من العلماء المرموقين في عصره واشتهر بعلمه الواسع ومواقفه السياسية الصارمة ونشاطه الإصلاحي المجدد، فبعدما حارب اليهود في توات رأي بعدها أ ينتقل إلى تمبكتو لنشر الإسلام والقضاء على البدع والوثية وقضى وقتاً طويلاً هناك.[2]

هذا وقد استقبله أمير كانو وأكرمه حيث جلس الإمام المغيلي للتدريس ونشر الدعوة بي السكان وتقديم المشورة لأمير البلاد ووصل إلى مملكة سنغاي التي كان عاصمتها غاو وقد أكرمه امير أسيكا وجالسه وتأثر بفكره الإصلاحي واستفتاه في جميع مسائل فقهية أجابه عليها المغيلي في رسالة سماها " أجوبة المغيلي وأسئلة الأسقيا"[3]

لقد فتحت زيارة المغيلي إلى بلاد السودان الباب أمام الكثير من الدعاة فتعودوا على زيارة الأقاليم السودانية والمكوث بها للتدريس والعلم وغمامة المسلمين ونشر الإسلام وتحفل كتب التراجم بذكر أولائك الذين اشتهروا والإمامة بتمبكتو.

---

[1] محمد حوتية، المرجع السابق، ص 28-30.

[2] محمد بن عبد الله ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 279.

[3] محمود فرج، المرجع السابق، ص 47.

لقد حظي علماء توات الذين انتقلوا إلى تمبكتو بحفاوة كبيرة ولم يكن المغيلي وحده من حظي بالتكريم والإشادة وقد رحب ملك البرني "كداي" بالشيخ محمد الطاهر الفلاني وولاه حظه السلطان ويذكر عبد الرحمان السعدي [1] ، إن كثير من علماء توات استقروا في تمبكتو ومنهم الشيخ أبا القاسم التواتي الذي كل محل احترام وتقدير الجميع حتى السلطان أسكيا الحاج موسى كان يحرص بعد كل صلاة على الملاقاة به للتسليم عله والتبرك به.

هذا وقد نقلت العديد من المخطوطات إلى تمبكتو من طرف العلماء التواتيين وانشئت المدارس والرباطات وبذلك شاركوا في إرساء نهضة علمية بمختلف الحواضر التي زاروها ودرَّسوا بها وحاز التواتيون نتيجة ذلك على مكانة مرموقة بوصفهم حملة رسالة ودعاة في سبيل الله كما تبوءوا مكانة مرموقة كمستشار السلطان وقائد ركب الحج والفقيه والصوفي...

وقد اشتهر علماء توات بتدريس علوم الدين واللغة والتصوف والزهد وعرف علماء بلاد السودان نبوغهم وريادتهم في مختلف العلوم وقد خلَّفوا في تلك البلاد تلاميذ يسيرو فكرهم وكثيراً م مصنفاتهم المخطوطة التي ما تزال إلى اليوم محفوظة في خزائن ومكتبات تمبكتو إلى أن يصل عدد المخطوطات في مكتبة أحمد بابا التمبكتي حوالي 127 مخطوطاً.[2]

حاز علماء توات على مكانة مرموقة في تمبكتو التي شهدت بفضلهم ازدهاراً علمياً جعل منها عاصمة للسودان الغربي وقد تداول على إمامة المدينة الكثير من العلماء والفقهاء منهم الفقيه أبو الأنوار بن عبد الكريم التنلاي الذي استقر فترة يعمل في الإفتاء والتدريس والشيخ الحسن بن سعيد البكري والشيخ محمد بن أحمد الذي أمضى حياته مفتياً ومدرساً ببلدية زوات شمال تمبكتو واستقر علماء توات بغاو وشمال مالي والتي كانت عاصمة لمملكة سنغاي.

هذا وكان للطرق الصوفية دور هام في نشر الإسلام وتعليم مبادئه بين أوساط السكان في كثير من حواضر إفريقيا الغربية، إذ نقل شيوخ كنتة للطريقة القادرية للسودان إذا كان لهم زيارات متكررة لبرنو حيث أسسو مدينة مبروك التي صارت مركز لنشر القادرية، كما قام الشيخ المختار الكبير بدور فعال في نشر الصوفية القادرية في المنطقة.

[1] عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص 236.

[2] محمد عبد الكريم بكراوي، المصدر السابق، ص 72.

وانتشرت الطريقة القادرية انطلاقاً من زاوية كنتة في أقاليم التتكرور حيث تذكر كثير من الروايات التي أوردها الشيخ مولاي التهامي غيتاوي أن وفداً من حضارة أروان جاء إلى زاوية كنتة وطلب من شيخ الزاوي سي علي بن الشيخ أحمد الرقادي أن يرسل معهم معلماً ومرشداً فكلف الشيخ سدي أمين الرقادي أن يرسل معهم ونزل عند قبيلة أولاد أحمد قادة يدرس ويرشد إلى أن توفاه الله تعالى .[1]

وقد نهض الشيخ الحاج عمر الفوتي التكروري(1210هـ-1795م) بجهود معتبرة في نشر الطريقة التجانية في غرب إفريقيا ولم يقتصر دورها في الجانب الديني فيها بل تعداه إلى الجانب السياسي والإقتصادي.

ومن العلماء التواتيين الذين رحلو إلى بلاد الساحل، الشيخ علي بن أحمد بن علي بن احمد الرقادي الكنتي ت 97هـ-127م كان م الصالحين الأخيار واهل علم صاحب نفع كبير وبركة كان كثير التنقل بين زوايا أجداده فب توات وبلاد الساحل الإفريقي تأثر به عدد كبير من التكروريين لغزارة عله وتفقهه أخذ عنه الكثير من أهل العلم.

كما زار بلاد التكرور الشيخ محمد بن العالم الزجلاوي صاحب النوازل 1212هـ 1798م حيث مارس مهنة التدريس والإفتاء كما زار مناطق عديدة في بلاد التكرور حيث أفاد واستفاد[2]

أما من الذين رحلو من تمبكتو إلى الديار التواتية أيضاً نجد أبي عبد الله الفلاني ت 1194هـ-1780م وهو صاحب الرحلة التي قام بها من بلاد التكرور إلى تنلان بتوات لتلقي العلم عن الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني حيث مكث شهرين وست ليالي أجازت الشيخ عبد الرحمانن بن عمر ببعض العلوم وهذه الرحلة قصيرة لا تتجاوز هخمس صفحات أعتمد فيها الاختصار الشديدحيث لم يكن يذكر نص الإجازات ولا حتى بعض مراحل الرحلة.

كما جاء من بلاد شنقيطا محمد الإداوعلي 1198هـ-1784م نسبة إلى قبيلة إداوعلي كبرى قبائل بلاد شنقيط، حيث خرج منها الحجيج فلما وصل إلى منطقة عين صالح من تيديكلت توقف عن السير وترك القافلة وعاد لزاوية الركب النبوي بأقبلي، حيث استقبله شيخها ابي نعامة وطلب منه البقاء لكن الإداوعلي فضل الانتقال لتوات وبالضبط لتمنطيط عند شيخها البكري بن عبد الكريم الذي استقبله وبقي عنده مدرساً فذاع صيته في توات وطلبه عدد من اعيان القصور

[1] محمد باي بلعالم، المصدر السابق، ص 09

[2] جعفري مبارك، المرجع السابق، ص 28.

فاختار قصر اعباني بفنوغيل حيث استقر هناك وبني زاويته ومدرسته، لكن لشدة الحنين في أواخر حياته هاجر إلى بلاد الساحل وتوفي هناك.[1]

المطلب الثاني : الرحلات الحجية

يعتبر الحج مناسبة لالتقاء العلماء من مختلف الديار والمشارب فهو بالنسبة لطلبة العلم رحلة دينية وعلمية يلتقون أثناءها كبار الشيوخ والفقهاء في المراكز التي يمرون بها، ويحضرون مجالسهم التعليمية لمدة قد تقصر أو تطول أخذاً وعطاءاً، وقد تمنح خلالها إجازات من هؤلاء العلماء للطلبة الذين يلتقون بهم في المراكز العلمية فيضيف الطالب سداً علمياً جديداً إلى سنده أو إجازة أخرى حيث يذكر أحمد بابا التمبكتي عن تنقل أحد شيوخه لطلب العلم والذي رحل إلى تمبكتو للأخذ ع الفقيه احمد بن سعيد ولم يكتف بذلك بل في طريقه إلى الحج أخذ بصر عن الشيخ اللفاني والتاجوري والبرهمتوشي ومحمد البكري وغيرهم [2] وبما أن الحج يشكل فرصة للإلتقاء فقد كانت توات إحدى المحطات الرئيسية لاجتماع الحجيج من بلاد الساحل الإفريقي بحجاج توات وتشكيل ركب واحد يضم إلى جانب الحكام والتجار علماء وفقهاء وطلبة على غرار ما كانت عليه القافلة الحجية للباش علي أحد بشوات تمبكتو عندما أراد الحج سنة (1041هـ-1631م) فكان معه فقيهين مشهود لهما بالصلاح والعلم أحدهما الشيخ أحمد بن عبدالعزيز القوراري، والشيخ أحمد بن بابا التمبكتي إلى جانب ثمانين رجلاً، فمر بطريقه في توات حيث لحق به القائد الفلاني بن عيسي الرحمان البر بوشي وأصحابه وأرادوا قتله لكنه استنجد بالفقهين المذكورين وأخلو سبيله لحرمتها وعظيم قدرتها ومكانتها ، بعد أن منعوه من الحج وقتلوا عدد من أصحابه، أما الفقهين فقد واصلا طريقهما إلى الحج رفقة حجيج توات.

-ومن العلماء اللذين زاروا توات خلال رحلتهم الحجية الشيخ أبو بكر بن الحاج عيسي أبو هريرة الغلاوي (ت 1146هـ-1733).

والذي حج عام (1121هـ-1709)رفقة الشيخ أبوبكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البر تلي (1199هـ-1709)رفقة الشيخ أبو بكربن الطالب محمد نفسية من الكتب اقتناها من الحج ومن دون شك نسخ البعض منها في توات .

[1] جعفري مبارك، المرجع السابق، ص 33.

[2] محمد حوتية، المرجع السابق، ص 38

-ومن الحجاج الفقهاء أيضا الشيخ الحاج البشير بن أبي بكر بن طالب محمد البر كلي (ت 1214 هـ-1799م)

1حج سنة 1204هـ-1789م وله رحلة يذكر فيها مراحل الطريق من توات إلى بيت الله الحرام

-كما زار توات مرات عديدة الشيخ احمد بن الأمين القبلاوي (ت 1157هـ-1794م) الذي كان من العلماء العاملين قائما بالمعروف والنهي عن المنكر حسن الخلق ذا معرفة بالفقه وفروعه جمعا للكتب انتفع على يده كثير من المهاجرين ،وهو شيخ ركب الحجيج من بلاد التكرور إلى توات فيكون الأمر لأبي نعامة القبلاوي الذي لقبه عبد الرحمان الجنتوري صاحب النوازل في حجته الأولى فصحبه من مصر إلى عين صالح من بلاد بتيديكلت فأجازه وأثنى عليه له شرح مفيد على نظم ابن سعيد ألسوسي سماه كشف الغمة في تقع الأمة وله كذلك إشراق البدر على عدد أهل البدر ,توفي بفزان بعد رجوعه من حجته الأخير وقبره موجود بها

- كما كان للحجاج الأفارقة أماكن محدودة يأتون بها إلى داخل توات في أوقات معلومة بالنسبة وهناك يلتقون بالطلبة والعلماء في المنطقة ،فيبقون في انتظارهم وعندما يتم التبادل العلمي والإجازات والمخطوطات واهم مراكز الالتقاء هي زاوية الشيخ علي بن حنيني بزاجلو وزاوية كنته وزاوية الركب النبوي باقبلي بتيديكلت وزاوية تسابيت وزاوية عبد الله بن طمطم بأوقروت إقليم قورارة لمن اختار الحج عبر الطريق الشمال[1]

المطلب الثالث: رحلات الأسر والأفراد :

لم تقتصر الرحلات بين الحاضرين على العلماء فقط بل تعدتها إلي الأسر والأفراد وأشهر الأسرة لدينا الأسرة الكنتية التي لعبت دورا بارزا في نشر الإسلام بإفريقيا والتي وصلت إلي بلاد السودان في القرن 9/15هـ وكان لها دور كبير في نشر الطريقة القادرية إذا أنتشر دعاة هذه الأسر أو القبيلة في المنطقة يدعون أهلها للدين والورع والابتعاد عن الوثنية ويزودونهم بالعلم.[2]

كما أهتم الكنتيون بالتجارة واشتغلوا بها فسيروا القوافل من توات وسجلماسة إ لى تمبكتو وغاو وبرنو وما ورائها من بلاد السودان وممالكه وقد تكون هذا المجتمع من لبنات تمثلت في تلك الجاليات والجماعات العربية التي هاجرت إلي بلاد الساحل الإفريقي في شكل أفراد أو جماعات بدءا

[1] جعفري امبارك، المرجع السابق، ص 49.

[2] محمد حوتية، المرجع السابق، ص 29.

من القرن التاسع هجري ،الخامس عشر ميلادي شكلت مجموعات بشرية انصهرت في المجتمع السوداني بفعل التجانس والتزاوج لتثمر هذه المجموعات علماء وأثر علمية كان لها الفضل في إثراء الساحة العلمية والثقافية في توت وبلاد السودان وتكوين مراكز علمية خاصة بهم مساهمين بذالك في التواصل العلمي بين المنطقتين خاصة خلال القرن الحادي عشر والثاني عشر هجري والسابع عشر والثامن عشر ميلاد

وأشهر القبائل التي هاجرت من توات إلي بلاد السودان هي قبيلة كنته *التي عرفت امتدادا واسعا في تنكبت وأسس عدة جوامع لهم وبرز منهم علماء وأقاموا مدارس وزاويا لتعليم القران واستقبال الضيوف ويقال أن عدد علماء قبيلة كنته يفوق ألف عالم كما اشتهروا بصلاح والورع وأحبهم سكان بلاد السودان لأنهم كانوا يقبلون المصاهرة واندمجوا في المجتمع التنبكتي فأثر فيه وتأثر به.

* قبيلة كنتة: هي إحدى القبائل العربية الأكثر انتشاراً في منطقة الصحراء قدموا من الشمال نحو توات وبلاد الساحل الإفريقي على فترات متقطعة تنسب إلى عقبة بن نافع الظهري مؤسس القيروان.

المبحث الثاني: الخصائص والصلات الإجتماعية بين توات وتمبكتو

المطلب الأول: خصائص مجتمعي توات وتمبكتو:

أ. **المجتمع التواتي وخصائص:** يتميز المجتمع التواتي بسماحته وانفتاحه على الشعوب في المجتمعات المجاورة له خاصة في الحواضر التي عرفت صلات وروابط أسرية وعلمية مثل: حاضرة تمبكتو وشنقيط وارفان وغيرهم وهو ما جعل المجتمع ينفتح على عناصر اجتماعية وافدة شكلت لاحقاً عناصر مهمة في تركيبته الاجتماعية نذكر منها:[1]

1) البربر: كان استقرارهم منذ القديم عبر قبائل أشهرها زناتة التي وطئت قدمها الإقليم منذ البداية بفروعها المختلفة كما نجد قبيلة لمتونة التي استقرت بتوات حيث يقول أحمد بابا حيدة في ذلك " إن أول من نزل بالمنطقة هم اللمتون" أولاد يوسف بن تشفين حيث انكسرت دولتهم بين المغرب والأندلس على يد العبيديين وملكهم ابن تومرت فجاؤ فارين إلى أن بلغوا أرض توات[2].

- وأهم بطونهم : كذالة، لمتونة، مسوقة، لمطة.

وكان ابن خلدون (ت 808هـ/ 1406م) قد تحدث عن الوجود البربري الزناتي في قصور تيكوارين في قوله: "وأكثر سكان هذه القصور الغربية في الصحراء بنو يامدس، ومعهم سائر قبائل البربر مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين، وهم أهل عدد وعدة وبعد عن هضمة الأحكام ودل المغارم، وفيهم الرجالة والخيالة وأكثر معاشهم من بلح المخيل".

وقد أقامت هذه القبائل الزناتية في بادئ الأمر مخيمات وأطواق من الحجارة لتخزين الأملاك وحفظ الماشية تعرف بتاقرارت، فاشتقت منها تسمية تيكورارين الدالة على المنطقة[3]، غير أن تواجدها تعدى –لاحقا– حدود المنطقة، فأنشأت قصور زناتية عبر أرجاء منطقتي توات الوسطى وتديكلت، إذ يشير الشيخ الجنتوري في إحدى نوازله إلى وجود بعض العجم في عين صالح، ولا تزال أسماء جل القصور كما هي رغم انحسار ذلك المد الزناتي عنها.

2) العرب: وهم المكون الثاني من مكونات المجتمع التواتي بعد البربر، كما هي الحال بالنسبة للمجتمعات المغاربية قاطبة، وقد أشار الشيخ الجنتوري في نوازله إلى العديد من القبائل العربية التي

1- أحمد بوسعيد، الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن 12هـ/18م، ص 79.

2- المرجع نفسه، ص 79.

3- ابن خلدون ، المصدر السابق، ص 08

استوطنت توات وما جاورها أحيانا بلفظ العرب المطلق، كالعرب الذين يحلون ضيوفا على أهب تيكورارين، أو العرب الذين يشترون التمور من القرى القرارية، وأحايين أخرى بالإشارة إلى قبائل عربية بعينها مثل قبيلة الخنافسة التي توزع أفرادها على قصور أوقروت وتيميمون، أو المحارزة عرب تينركوك، أو القبائل ذات الحضور الموسمي في توات، مثل الغنائمة الذين ورد ذكرهم في النوازل على أنهم أهل سطوة وقوة، يتحالفون مع بعض القبائل المحلية ضد أخرى، أو يستقوي بهم بعض الأفراد في خلافاتهم البينية، وذوي منيع الذين أشارت إليهم النوازل إلى عدائهم المستمر للخنافسة وسلبهم إبلهم، وغيرها من القبائل العربية التي توافدت على الإقليم في فترات زمنية متباعدة، قبل أن يتمكن عرب المعقل من بسط نفوذهم على المنطقة، مستفيدين من تزايد أعدادهم وضعف سلطة دولة بني مرين، "فأقام هؤلاء المعقل في القفار وتفردوا في البيداء، فنمو نموا لا كفاء له، وزاحموا قبائل زناتة واستولوا على قصور توات وبودة وتمنطيط وتسابيت وحازوا تلك الأوطان في مجالاتهم، ووضعوا عليها الأتوات والضرائب، وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا".[1]

3) البرامكة: وأصلهم من الفرس والعجم ، أصبحوا من العناصر الفاعلة الهامة في المجتمع التواتي، منذ استقرارهم بالبلاد التواتية سنة 656هـ وهم من ناصر المغيلي (ت 909هـ/1503م) على خصومه بعد طرده اليهود من توات وهم من أنزله بزاويته بقصر بوعلي في توات الوسطى[2].

يتجلى حضور هذا العنصر البرمكي بوضوح خلال الانتساب نية أو لقبا، دون وجود خصائص عرقية أو لغوية مميزة عازلة عن بقية الفئات، فقد اندمجت معها تواصلا ومصاهرة[3].

4) الأفارقة: استقبل المجتمع التواتي أعدادا لا بأس بها من الأفارقة السود، من بلاد السودان، وقد عبرت عنهم النوازل وعن علاقاتهم بالسكان الآخرين باسم (العبيد)[4].

ووجود هذا المكون بالإقليم يرجع إلى العلاقات التجارية النشيطة بين توات والسودان، وطبيعة السلع والبضائع التي كان يتم تبادلها بين المنطقتين، وقد سرت عادة جلب الأفارقة الزنوج إلى توات والمغرب واسترقاقهم واشتدت منذ سيطرة المنصور الذهبي على بلاد السودان سنة

1- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص 80.
2- المرجع نفسه، ص 81.
3- د. أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص 81.
4- المرجع نفسه، ص 81.

(909هـ/ 1591م)، بعد أن مهد لذلك بالاستيلاء على تيكورارين وتوات، وصحب الجيش السعدي معه أثناء عودته أعدادا كبيرة من الرقيق[1].

ب. المجتمع في تمبكتو وخصائصه:

منذ انتشار الإسلام في شمال إفريقيا أخذت القبائل العربية توغل نحو الجنوب، إذ كان توغلها يتم في حركات مستمرة، والجدير بالذكر أن هؤلاء العرب يمتازون عن غيرهم من الشعوب الأخرى من حيث قدرتهم على الانسياب في الداخل، إذ استطاعوا التوغل في الصميم وأخضعوا قبائل هذه المناطق لسلطاتهم[2].

فقد عرفت تمبكت بتجارتها في عهد مملكة مالي حيث كانت التجارة تمثل المصدر الرئيسي في حياة سكانها، بالإضافة إلى توفرها على ثروات حيوانية كثيرة كالإبل والأبقار والأغنام والخيل والحمير، وكانت حرفتهم الأساسية تتمثل في تربية الحيوانات في العديد من المناطق المجاورة لها، وعرف سكانها بإتقان كثير من الحرف منها الحدادة والغرازة والدباغة وغيرها[3].

وأورد ابن خلدون فيما يخص العلاقات التجارية: "وهنا تعلو اسم للسودان وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وإفريقية[4].

ومن أكثر الأمور التي أدت إلى الازدهار الاقتصادي هو ذلك التواجد الكبير لكثير من الغرباء العرب والبربر وخاصة الذين اشتغلوا بالصناعة الحرفية، فقد شهد على هذا الازدهار صاحب كتاب إفريقيا في قوله: "تزخر تمبكتو بكثير من الدكاكين التجار والصناع وأهم تجارتهم الثياب القطنية التي يستبدلونها بثياب مصنوعة في أوروبا يأتي بها تجار من بلاد البربر، وهؤلاء التجار وأصحاب الحرف كلهم أغنياء، ولاسيما منهم الغرباء الذين يستوطنون البلاد حتى أن السلطان زوج بعضهم بنات البلد..."[5].

1- المرجع نفسه، ص 82.

2- بسمة مزري، الجالية المغاربية في مدينة تمبكتو في عهد مملكتي مالي وسنغاي، ص 33.

3- المرجع نفسه، ص 33.

4- المرجع نفسه، ص 34.

5- بسمة مزري، المرجع السابق، ص 35.

المطلب الثاني: أهم القبائل المتنقلة بين الحاضرتين

إن التواجد الكبير للأجانب ومنهم العرب في الحضائر السودانية في عهد سنغاي كان له آثار طيبة على هذه المنطقة، فالجاليات العربية كانت محفز أساسي في الانتعاش الاقتصادي والاجتماعي للملكة، وقد استقر في مدينة تمبكت عدد كبير من العرب، حتى أصبح لكل قبيلة منهم حي خاص بها، وقد هاجروا إليها منذ نشأتها ثم استوطنوا بها، ولاحظ ذلك الرحالة ابن بطوطة خلال القرن 8هـ/14م، فقد التقى بأفراد هذه الجالية وذكر الحي الخاص بها الذين سكنوه[1].

1) قبيلة كنتة:

تعد قبيلة كنتة من أهم القبائل العربية في منطقة السودان التي كانت مستقرة في منطقة توات جنوب المغرب الأوسط، وفي أواخر النصف الثاني من القرن 9هـ/15م هاجرت إلى ولاتة، إذ تمكنوا من جعلها أول مركز لنشر الطريقة القادرية وبمرور الوقت أصبحوا أبرع دعاتها.

ومن أبرز الشيوخ الأوائل للطريقة القادجرية: "مختار الكنتي" هذا الداعية حصل على تأييد قبائل الطوارق، وتمكن أتباعه من الدعاة إلى الوصول على مدينة "كانو" في شمال نيجيريا وغرب "جيني" حتى حوض السنغال[2].

2) قبيلة البرابيش:

هي من أشهر وأقدم القبائل العربية التي استوطنت في تمبكتو وامتدت جذورها إلى توات وشنقيط منذ مطلع القرن السادس عشر ميلادي ويشكلون ثالث أكبر تواجد عربي بعد قبيلة كنتة وكلنتصر وهم ينحذرون من الهجرة العربية الكبرى إلى المغرب العربي التي انطلقت من مصر تحت إسم " بنو هلال " .

- البرابيش كغيرهم من القبائل التي يطلق عليها إتحاد قبلي انصهرت مع الزنوج والبربر وهم يضمون في صفوفهم عدة فخوذ أشهرها: أولاد يعيش ، أولاد غنام، اولاد دليم، أولاد ديلول، بوجبهة، مشضوف وغيرهم.

1- المرجع نفسه، ص 36.

2- بسمة مزري، المرجع السابق، ص 37.

- إزداد نفوذ البرابيش في تمبكتو سياسياً بتقربهم من الحكام واقتصادياً بفضل سيطرتهم على الأسواق التجارية وامتلاكهم رؤوس الأموال وتسيير للعديد من القوافل التجارية وكانوا ينقلون السلع إلى توات والحواضر المجاورة لها.
- تذكر الروايات التاريخية أن الأصول الأولى للبرابيش يعرفون بأولاد عبد الرحمان أو أولاد رحمون ويضيف إن هجرتهم كانت في بداية حكم السلطان مولاي أحمد الذهبي للمغرب وذلك سنة 1578م، وهم من بني حسان وتوجهوا بعدها إلى بلاد السودان واستقروا في تمبكتو وكانو يسيرون قوافل الملح من تغازة ثم بعد ذلك سنة 1585م أصبحوا يأخذونه من تاودني.[1]

3) قبيلة فولان:

تعتبر قبيلة فولان من أكثر القبائل التي كان لها امتداد بين توات وتمبكتو حيث اختلفت معظم المصادر حول أصلهم ، لكن أغلب الروايات ترجع نسبهم إلى الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري، في حين ذكر آخرون أنهم من أصول إفريقية وبحكم تنقلها الدائم وممارستها للرعي فقد استوطنت هذه القبيلة أجزاء من شنقيط وتمبكتو وامتدت فروعها مطلع العصر الحديث إلى توات وبرز منها عدة علماء.

لعبت قبيلة فولان دوراً كبيراً في نشر الإسلام وتوحيد المسلمين ومحاربة الوثية التي كانت منتشرة بين القبائل البربر والزنوج، حيث قاد الشيخ عثمان دان فوديا حركة إصلاحية في بلاد التكرور وانتصر على الزعماء الوثنين ونقل ثورته إلى توات حيث يشهد أخوه عبد الله إبن فوديو في كتاباته على أنه أخذ العلم من الشيخ عبد الكريم المغيلي وكذا المختار الكنتي الذي امتدحه قائلاً:

- بلغ شريف شريف أصل كإسمه أعني لشيخ كإسمه المختار
- أزكى سلام شيب مسكأ تمسه ريح التبسم تهب في الأسحار

كما أن هنالك فروع عديدة من قبائل الفولان استوطنت في توات وبرز منها علماء في أقبلي وساهموا في نقل المعارف إلى تمبكتو وبلاد السودان نذكر منهم :

أ. الشيخ محمد ابن الحسن ابن محمد بن الحاج أحمد الفولاني

ب. الشيخ عبد الرحمان السكوني

1 - بول ماريتي: البرابيش بني حسان، تر: محمد محمود ولد دادي، مطبعة زيد ابن ثابت دمشق، 1985م، ص34.

– ارتبط هؤلاء العلماء بعلاقات صداقة مع علماء وأعيان وأشاد الشيخ عبد الرحمان السكوني في قصيدة له بفضل قبيلة بوجبيهة من البرابيش في العلم واستعطفهم في قصيدة له طالباً العلم.[1]

4) الطوارق:

"هم ظواعن في الصحراء، رحالة لا يطمئن لهم منزل، وليس لهم مدينة يأوون إليها ومراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، وهم على دين الإسلام، وإتباع السنة يجاهدون غيرهم من طوائف السودان" [2]، أطلق عليهم الملثمون، وتمركزوا في المنطقة الممتدة من درعة إلى سلجماسة، وعرفوا انتشارا في مساحات واسعة في الصحراء الكبرى من توات وفزان وشمالا إلى تنبكتو وزندر جنوبا.

وهم مرتبطون بالقبائل الصنهاجية وينقسمون إلى عدة قبائل مرتبطة بأربعة فروع كبرى:

– فرع طوارق الهوقار.
– فرع طوارق أجرو اينغوكا.
– فرع طوارق كلوى.
– فرع طوارق غوليمندن شرقي تنبكتو[3].

اللغة التي كانت سائدة بينهم فهي اللغة الصنهاجية المعروفة باسم "تامشيكت" وهي لغة مكتوبة ترك لنا قدماء الملثمين (الطوارق) نماذج منها تبين طريقة كتابتها، منقوشة في الصخور بأجزاء مختلفة من الصحراء، ويطلق على الكتابة اسم "تيفناغ"، إضافة إلى اللغة الصنهاجية التي كانت متداولة عرفت الصحراء لغة أخرى تحت اسم لغة "آزير" التي اعتبرها كتاب المنطقة أنها لا تختلف عن لغة "تامشيكت" كثيرا أو كلام "آزناتة" وبالتالي فهي من لغات البرر، وبعد انتشار الإسلام صارت اللغة العربية السائدة بينهم، إضافة إلى ذلك صاهروا السكان الأصليين من السونك والمانينجو وتحالفوا معهم ضد الفزو الأجنبي إلى أن سقط تمبكتو في أيدي قادة الغزو المراكشي.

[1] – عبد الرحمان زكي: امبراطورية الفولة، قبيلة فولان من خلال مؤلفات ومقالات الباحثين وكتابات المؤرخين، منشورات جامعة ام درمان، السودان، ص 34

2- المرجع نفسه، ص 39.

3- بسمة مزري، المرجع السابق ، ص 40.

كان لهذه القبيلة الطارقية أثر واضح في مدينة تنبكت، إذ ساهمت قبيلة مقشرن في تخطيطها ونموها وازدهارها منذ القرن 5هـ/ 11م، واتخذوا منها مستقرا لهم حتى أصبحت سوقا هامة يؤمها التجار والقوافل التجارية من كل مكان فقامت تنبكت على أنقاض مدينة ... (ولاته).[1]

المطلب الثالث:العادات والتقاليد الاجتماعية المتبادلة بين الحاضرتين:

إن وضعية المرأة في مجتمع توات والأزواد تتميز بالاحتشام والتأثير على زوجها وغفران هذا الأخير هو المسؤول الأول والأخير، والنساء في أغلبهن لسن مطالبات بالتحجب عند الخروج من المنزل وكذلك ليس من الطبيعي ضربهن في المنطقة والمرأة التي يضربها زوجها تخرج من منزله تجد نفسها مطلقة، أما بعض الرجال فإنهم يحتفظون بنسائهم حتى وفاتهم، غير أن الطلاق بالنسبة للسكان شيء سهل وعادي وعند الفقراء النساء مكلفات بأعمال شاقة وكبيرة، أما النساء الأغنياء فيملكن الخادمات اللاتي يقمن بجميع الأعمال المنزلية هذه العادة تترك المرأة نفسيتها في استرخاء تام، أما العلاقات الغرامية والعاطفية فهي غير معروفة في المنطقة [2]، ومن المظاهر التي كان يتحاشاها المجتمع وينظر لها نظرة احتقار وازدراء هي كثرة دخول وخروج المرأة من منزلها دون ضرورة اجتماعية، ومن أمثلة ذلك ما اشتكى به أبو القاسم بن الحاج عبد الرحمن من زوجته خديجة بنت الشيخ عبد الرحمن من كثرة الخروج والدخول إلى فقيه المنطقة فكان جوابه أن خروج المرأة ودخولها من العيوب الفاحشة التي يجب الزجر عنها وقد ورد في الشرع عدم خروج النساء لغير الضرورة[3].

– العادات الاجتماعية وما يتصل بها من زواج وولادة ووفاة:

1) الزواج:

على عادة المجتمعات الإسلامية فإن النساء يتزوجن في سن مبكرة، في معظم الأحيان، قبل البلوغ من يريد الزواج من إحدى الفتيات عليه بإرسال والديه أو صديقه لطلب الفتاة من والديها عندما يكون هناك وفاق بين الطرفين يعين الزوج شاهدين حيث يذهبان إلى منزل العروس لطلب معرفة وكيلها الشرعي وكذلك الزوج يعين وكيله الشرعي ويذهب بعدها إلى الفقيه الذي يكتب عقد الزواج ويتم بها إعلان عقد قران الزوج بزوجته وتكون في ليلة الدخلة بحضور جمع من الضيوف يعدون

1- فرج محمود فرج، المرجع السابق ، ص 48.

2- محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ص 367.

3- المرجع نفسه، ص 368.

كشهود على هذا القران ويقدم الزوج ملابس وحلي إلى زوجته ويطرح المهر المحدد بين يدي العروس ومبلغ المهر يختلف من مقاطعة إلى أخرى، ويخضع المهر للأحوال الاجتماعية وهي عموما ما بين خمسين إلى خمسة مائة فرنك بالنسبة للبيض، أما السود فهو حوالي خمسة إلى خمسة عشر فرنك نقدا أو موادا أو سلعا، وبعد هذه الإجراءات الأولية يتم حفل الزواج[1]، وتقوم النساء بتسريح شعر العروس ويرافقنها إلى بيت زوجها ويركبنها فوق الجمل إن كانت المسافة بعيدة وينطلق الموكب يتقدمه أقارب وجيران وأصدقاء العائلة على طول المسافة يطلق البارود مع زغاريد النساء، رفقاء وعائلة الزوج ينتظرون قدوم العروس بملابس جديدة للاحتفال وبعد الغناء والاحتفال يقوم الحضور بترك الزوجين وغلق أبواب البيت حيث يخيم السكون على بيت الزوجية وبذلك يكون الزواج قد انتهى.

2) الولادة:

عند ازدياد أحد الأطفال يقبل السكان لمباركة الوالدين (مبروك، الله يعافيه)، سبع أيام من بعد الولادة تقام وليمة وخلالها (السبوع) يقوم الناس الكبار باقتراح اسم للمولود الجديد، بعد سنتين يفطم المولود عن الرضاع ويكون أكله عبارة عن طحين التمر بالدهان الساخن إلى غاية اللحظة التي يستطيع الطفل فيها أن يهضم الأكل المعتاد.

يختن (يطهر) الأطفال ما بين خمس وعشر سنوات، يقوم بالعملية أحد الأشخاص يسمى (المعلم) بواسطة سكين خاص، وخلال الختان (الطهارة) يقام حفل بالمناسبة ويجلس المدعوون في البيت مرددين (مبروك الختان) بعد ذلك كل أسبوع ينظف موضع الختان بالزجاج المسحوق، الأغنياء يقدمون مأدبة غذاء أو عشاء مع البارود وهذا فرحا بما بلغه طفلهم من التقدم في العمر.

3) الضيافة:

تميز إقليم توات والأزواد بكرم الضيافة وقد اختص كل إقليم بطريقة خاصة في إكرام الضيف ويتجلى ذلك في تخصيص غرفة في كل البيوت بإقليم توات تسمى (دار الضيافة) وقد تنافس السكان في ذلك ولهم مقولات شعبية يرددونها تدل على تأصيل هذه الفكرة عندهم أما بإقليم الأزواد فيمثل الشيخ سيد المختار الكنتي نموذج الضيافة بهذا الإقليم، الذي كان يدخل أفضل الأطعمة كالتمر

1- مقلاتي عبد الله، علاقة إقليم توات بتمبكتو، مؤتمر 2003، ص 12.

والعسل والزبيب ليقدمه إلى ضيوفه باعتباره مقصودا من طرف سكان إقليم توات وليحث الناس على هذه الصنيعة في الكرم كان يقول: "من أكل ..... فقد أبدى عورته"[1].

فكانت خيمته يأوي إليها الرفيع والوضيع والدني والقصي وعندما ينزل عنده الضيوف يرغبهم في الأكل عن طريق الحكايات والنكت، ومن شدة كرمه كان يصرف ما عنده من الموجود من النقود والعروض والماشي يقدم ما كان مذبوحا إن كانت فيه الكفاية وإلا فكان يقوم بوضع سكينه على أفضل ما عنده من الماشية وفي نفس الوقت كان يراعي عامل النفقة في الاقتصاد.

4) الوفاة:

مباشرة بعد وفاة أحد الأشخاص يدفن في نفس اليوم الذي يتوفى فيه أو في الصباح الباكر إذا كانت الوفاة خلال الليل تغسل وتلف في الكفن ويحمل إلى المقبرة على النعش المصنوع من لب النخيل يجمع بأشرطة من الجلد، يغطى النعش بكساء ويحمل ببطئ باتجاه المقبرة من طرف سكان القصر، يطرح النعش أمام المقبرة باتجاه القبلة والكل يجلس على الأرض في انتظار سكان القصور الأخرى وعند اكتمال الحضور يقوم الإمام بصلاة الجنازة في العادة يقوم بها الإمام الذي يصلي بالناس في المسجد الصلوات الخمس، والقبر يكون في العادة ضيقا وعميقا وتنشر حفنة من الحنة في وسط القبر قبل وضع الميت والمتطوعين بأدوات الحفر يحيطون بالقبر ويرفعون ازارا على رؤوس أقارب الميت الذين يقومون بوضع الجثة ويرفع الازار الموضوع على الجثة بعد رفع الأحجار على القبر فإن الازار الذي يستر العاملين يسحب ثم تغطى بالطين ثم توضع حجرتين كشاهدي قبر، الأولى على موضع الرأس والأخرى على موضع الرجلين وهذا حتى يحدد جنس الميت أذكر أم أنثى؟ وحتى يسهل على أهله التعرف عليه عند زيارته ثم يغطى القبر بطبقة رقيقة من التراب وبعد الانتهاء من الدفن ينسحب الناس ولكن يبقى بعض رواد المسجد لقراءة القرآن، عائلة الفقيد ترسل في أجر اليوم الطعام واللحم، والطعام الذي يصنعه أهل الميت ويسمى العشاء مكروه، قال في الطراز وما أضاع أهل الميت طعاما وجمع الناس عليه بقدر كرهه جماعة وأعدوه من البدع إنه لا يثقل فيه شيء وليس ذلك موضع الولائم وأما عقر البهائم وذبحها عند القبور فمن أمر الجاهلية.

وقد روى أنس بن مالك: «لا عقر في الإسلام»[2].

1- محمد الصالح حوتية، المصدر السابق، ص 371.

2- موقع إلكتوني: ويكبيديا ، الموسوعة الحرة. يوم 2020/10/08 على الساعة الثالثة مساءاً

خلاصة الفصل:

إن الدور الإجتماعي البارز بين الحاضرتين في هذه المرحلة هو تلك الرحلات التي ميزت الروابط الإجتماعية من تنقلات العلماء والأسر والأفراد والحجاج وكذا العادات الإجتماعية المشتركة التي طبعها التصاهر بين القبائل التي تنقلت بانتظام بين المنطقتين مثل الكنتيين، الشرفاء الأدارسة، الفولان، البرابيش كما لعبت القوافل التجارية دوراً هاماً في التلاقح الحضاري والإجتماعي، حيث كانت هذه القوافل تحمل إلى جانب السلع الكتب المخطوطة مما جعل منطقة توات وتمبكتو في العصر الحديث مقصد العلماء وطلبة العلم والباحثين من مختلف الحواضر المجاورة كفاس وشنقيط وولاتة وغدامس .

خاتمة

وفي ختام هذه الدراسة حول العلاقات الاقتصادية والروابط الاجتماعية بين حضارتي توات وتمبكتو ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين وتتبع أهم الأحداث التاريخية المتعلقة بهما منذ بداية التواصل الحضاري والعلمي في العصر الوسيط منذ رحلة العلامة الشيخ بن عبد الكريم المغيلي وما تبعها من أحداث وكيف استقبله سكان بلاد السودان ومنذ إقامته بتمبكتو وكيف قربه أهلها ومكانته العلمية جعلته يجذب اهتماماً كبيراً وكان مقدمة للرحلات العلمية والحجية بين الحاضرتين.

- كما لعبت تجارة القوافل الصحراوية دوراً هاماً في العصر الحديث وكانت باكورة التلاقح الحضاري والإجتماعي وازدهت التجارة بين توات وتمبكتو والحواضر المجاورة لهما، كما عرفت هذه المرحلة بداية التواصل بين الأسر والأفراد حيث انتقلت عدة أسر من تمبكتو إلى توات أهمها:
- أسرة الكنتيين
- أسرة البرابيش
- أسرة الشرفاء الأدارسة
- أسرة الفولان والتي لعبت دوراً هاماً في نقل العلوم والمعرفة إلى سكان قصور توات وتطهيرها من الخرافات والبدع، كما انتقلت عدة أسر إلى تمبكتو طالبين العلم والمعرفة وأقامو في حواضرهم وقد حظوا بمعاملة حسنة من السودانيين واشتغل معظمهم بالإمامة والتدريس ولعل أهم النتائج التي يمكن أن نستخلصها من هذه العلاقات هي:

- جذور العلاقات بين توات وتمبكتو منذ العصر الوسيط القرن 12 و 13 م .
- إن تجارة القوافل لعبت دورا كبيرا نشر الإسلام في تمبكتو وبلاد تمبكتو.
- دور رحلات الحج في إثراء الرصيد العلمي لمنطقة توات خاصة أولف وعين صالح بالكتب والمخطوطات التي أخذها معهم الحجاج خاصة رحلة الحاج منسي موسى.
- دور علماء توات في نشر الثقافة واللغة العربية في توات وتمبكتو مثل: المغيلي.
- ثراء خزائن المنطقة بدرر نفيسة من المراجع العلمية والمخطوطات في شتى العلوم.
- تصاهر التواتيين مع سكان بلاد تمبكتو خاصة قبيلة كنته كان رافدا إماما في ازدهار الحياة الاجتماعية.

- كان للطرق الصوفية دور هام وبارز في نقل تعاليم الإسلام كما شهدت فروع جديدة كالطريقة المختارية والبكائية.
- انفتاح علماء توات على تمبكتو جعلها مركز إشعاع علمي وحضاري وأصبحت تنافس الحواضر الأخرى.
- ثراء منطقة توات بعدة كتب حجية هامة كانت قادمة من الحجاز أو تمبكتو .
- ذوبان عدة عناصر إجتماعية جديدة شكلت المجتمع التواتي.

قائمة المصادر والمراجع

المخطوطات:

1. محمد بن محمد البداوي، نقل الرواة عن من أبدع في قصر توات، مخطوط خزانة كوسام، أدرار.
2. محمد عبد الكريم بكراوي، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة كوسام، أدرار.

المصادر:

1. ابن بطوطة شمس الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، ط4، شرفة وكتب هوامشه: طلال حرب، دار كتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007.
2. بول مارتي، البرابيش بنو حسان، تعريب محمد محمود ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1985م.
3. حسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1983م، ج2.
4. عبد الرحمن محمد ابن خلدون، كتاب العبر، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، 2001م، ج7.
5. فليكس دييوا: تمبكتو العجيبة، تر: عبد الله عبد الرزاق ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2007.
6. محمد باي بلعالم: الرحلة العلمية إلى منطقة توات لذكر بعض أعلام منطقة توات، دار هومة ، الجزائر، ج1 .
7. مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، تحقيق: مولاي عبد الله الطاهري، الجزائر، ديوان دار النشر، 2010م.

المراجع:

1. أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية (ماء الموائد)، تحقيق: سعيد الفاضيلي وسليمان القرشي، الإمارات، د.س.ن.ت، 2006م.

2. أحمد الشرياصي، معجم الاقتصادي الإسلامي، دار الميل، 1981.
3. أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر، جدة، السعودية.
4. إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشوائطها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
5. أمحمد مولاي، التجارة والرحلة ودورهما في التواصل العلمي بين توات وتمبكتو ما بين القرنين 11-12هـ/17-18م، مجلة الدراسات التاريخية و الإجتماعية – ج.نواكشط، ع 5، 2015.
6. بن سويسي محمد:العمارة الدينية الاسلامية في منطقة توات(تمنطيط نموذجا) من القرن 6هـ إلى 13هـ.
7. جعفري امبارك، العلاقات الثقافية بين توات وتمبكتو خلال القرن 12هـ، د.س.ن.ج، ط1، 2009م.
8. الشيخ الأمين عوض الله، تجارة القوافل بيم المغرب الأوسط وتمبكتو وأثارها الفكري والحضارية من القرن 16م بمنطقة العربية لتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد 1984.
9. صلاح الدين المنجد، مملكة مالي عند الجغرافيين والمسلمين، دار الكتاب الحديد، بيروت، لبنان، ط2، 1405هـ/1982م.
10. عبد الخالق أحمدون:التواصل الحضاري بين المغرب والبلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى،أعمال ندوة التواصل الثقافي بين الأقطار الإفريقية جنوب الصحراء،كلية الآداب بالمغرب وكلية الدعوة الإسلامية بطرابلس،1998،ط1.
11. عبد الرحمان حمادو الكتبي، مع المغيلي محمد ابن عبد الكريم الإمام" صاحب نازلة اليهود "حقائق ووثائق، البلاغ للنشر وتوزيع وأبحاث، الجزائر، 2013.
12. عبد الرحمان زكي، أمبراطورية الفولا، قبيلة فولان من خلال مؤلفات ومقالات الباحثين وكتابات المؤرخين،، منشورات جامعة أم درمان، السودان، 1986م.
13. عبد القادر زبادية، مملكة السنغاي في عهد الأسقين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972م.

14. عبد الله سالم بايزية، انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ط 1، 2010م، جامعة 07 أكتوبر، مصر.
15. العياشي أبو سالم عبد اللهة محمد: (ت 1090هـ/1979): الرحلة العياشية، 1661-1663م، تج: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع ابو ظبي-الإمارات العربية المتحدة، 2006.
16. فرج محمد فرج، إقليم توات خلال القرنين 12-13هـ/18-19م (دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية)، ج1، د.ك.ع.ن.ت، الجزائر، 2007م.
17. فيليكس ديبوا، تمبكتو العجيبة، تر: عبيد الله عبد الرزاق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1.
18. محمد الخليفة الكنتي: الرسالة الغلاوية، تحقيق حماه الله ولد السالم، ط 1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2007.
19. محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في تمبكتو، مؤسسة الخليج، بغداد، ج4، 1982م.
20. محمد حوتيه، توات والازواد خلال القرنيين 12 و13هـ 18-19م، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ج1، د ك ع نت، الجزائر، 2007.
21. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والاندلس في عصر المريني، (610هـ-1213م، 869هـ-1406م)، ط2، دار القلم، الكويت، 1985.
22. محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و 19 هـ، م،ج، الجزائر، 1984.
23. منيرة قاية، الحواضر الإسلامية في إفريقيا في عهد مملكتي مالي والسنغاي - تمبكتو نموذجا (05-10هـ / 11-16هـ).
24. مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تج: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1995.
25. الهادي مبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي والافريقي فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر بداية القرن الثامن عشر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999.
26. هوبكنز: التاريخ الاقتصادي لافريقيا الغربية، تر فؤاد بليغ، منشورات المجلس الأعلى، القاهرة، ط1، 1998.

27. ياقوت، الحموي: معجم البلدان، ج3، بيروت، دار صادر، 1979

المذكرات والرسائل الجامعية:

1. أحمد محمد بوسعيد، الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن 12هـ/18م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، التاريخ العام المغاربي والاجتماعي والثقافي، جامعة أدرار، 2011-2012م.
2. بسمة مزري، الجالية المغاربية في مدينة تمبكتو في عهد مملكتي مالي وسنغاي، مذكرة ماستر، التاريخ الاسلامي الوسيط، جامعة 08 ماي قالمة، 2017.
3. حسن بوبيدي، دور صنهاجة الصحراء في التواصل الاقتصادي والثقافي بين المغرب الإسلامي وتمبكتو من ق 2هـ-8م الى ق7هـ-13م مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط تخصص العلاقات الاقتصادية والثقافية بين بلاد المغرب الإسلامي وافريقيا وما وراء الصحراء، اشراف إسماعيل سامعي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، السنة الجامعية2010-2011.
4. صالح بوسليم، المؤسسات الثقافية بإقليم توات (دراسة تاريخية من خلال وثائق محلية، أثناء القرنين 19/18م، أطروحة دكتوراه في التاريخ، إشراف محمد مجاود جامعة بلعباس، 2008.
5. سالمي زينب:الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرنين 8 و 10 هجرية ، مذكرة ماجيستير ، تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة بوبكر بلقايد ، تلمسان، 2012.
6. هشام بهلول، الجنوب الجزائري في أدب الرحلة أبي سالم العياشي نموذجا(1072-1074 هـ) (1661-1663م) اشراف جملة معاشي، مذكرة لنيل درجة ماستر في تاريخ تخصص الريف والبادية، جامعة قسنطينة2 (2012-2013).

الملتقيات والمؤتمرات:

1. عبد الله عباس: الدور الحضاري لإقليم توات، أعمال الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعتي أدرار وتيارت، العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، أدرار، 14-15أفريل2009.

2. مقلاتي عبد الله، مداخلة بعنوان التواصل الاقتصادي والعلمي لمنطقة توات وانعكاسه على التواصل ببلدان الساحل الافريقي ما بين القرنين 16-18م.

المراجع بالاجنبية:

1. Joseph ki zerbo : Histoire de l Afrique noire d hier a demain ; libaraire hatier , paris , 1972.

الموقع الالكتروني:

1. https://www.google.com/search?

الملاحق

الملحق رقم 01: موقع إقليم توات وحدوده

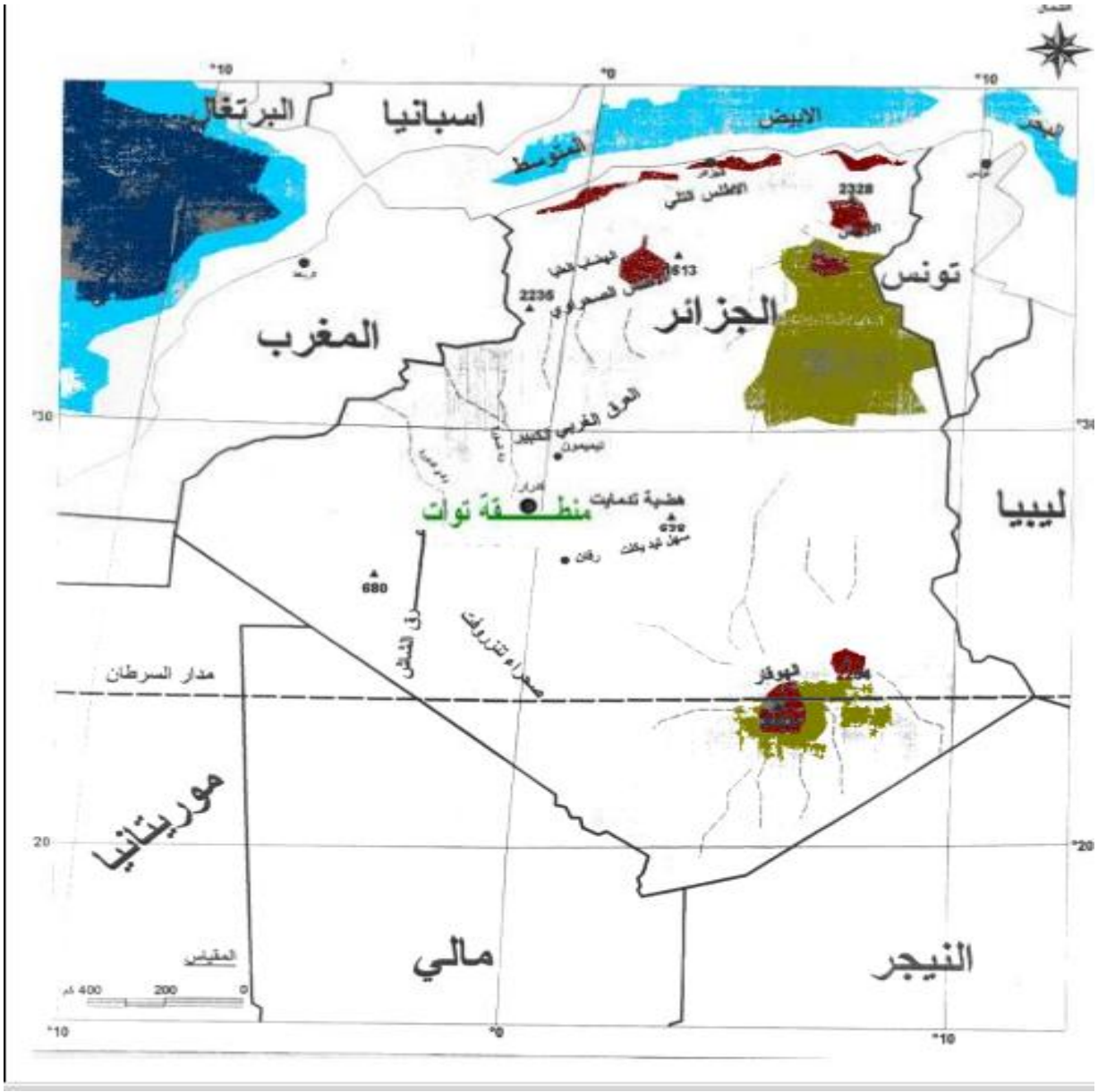

المرجع:بن سويسي محمد:العمارة الدينية الاسلامية في منطقة توات(تمنطيط نموذجا) من القرن 6هـ إلى 13هـ،ص 202.

الملحق رقم 02: مناطق إقليم توات الثلاث وعواصمها

المرجع: أحمد بوسعيد:الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن 12هـ/18م،مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ العام تخصص التاريخ المغاربي الاجتماعي والثقافي،جامعة أدرار،2011-2012،ص 160.

الملحق رقم03:الخصائص الجغرافية لإقليم توات

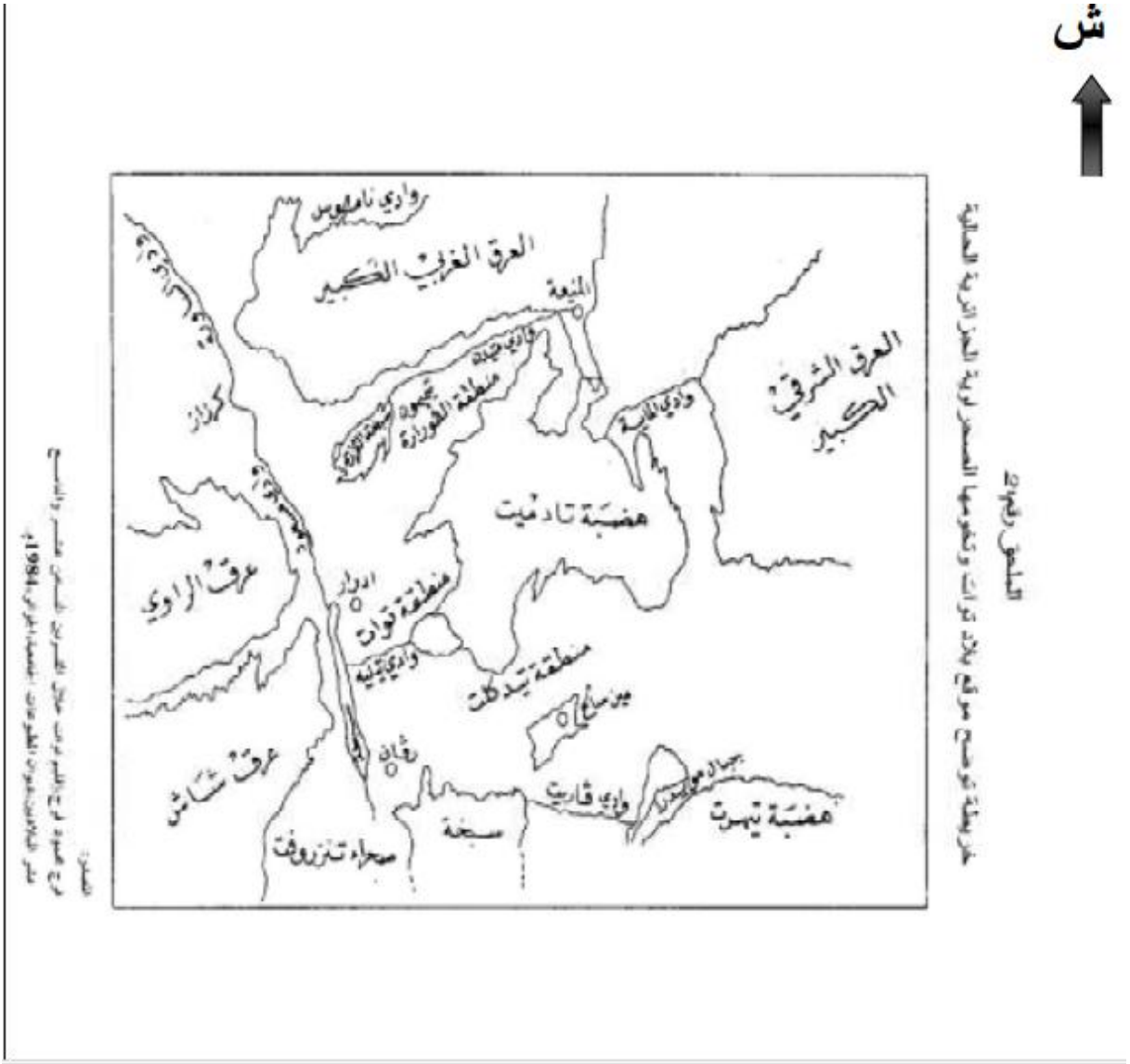

الملحق رقم2: خريطة توضح موقع بلاد توات وتخومها الصحراوية الجزائرية الحالية

المصدر:فرج محمود فرج ،إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين،ص 03.

الملحق رقم 04: خريطة تبين أهم طرق المواصلات بين توات وشمال القارة وجنوبها

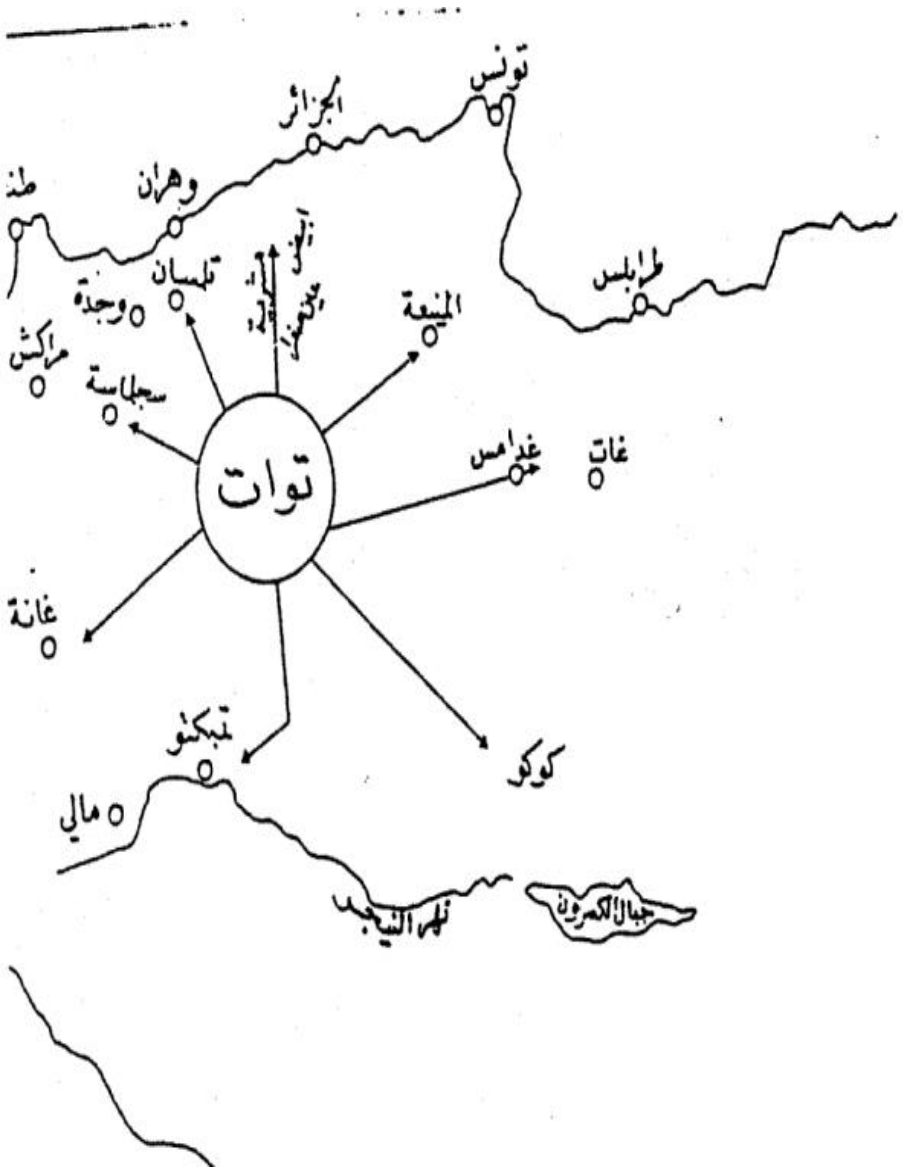

المرجع:سالمي زينب:الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرنين 8 و 10 هجرية،المرجع السابق،ص 116.

الملحق رقم 05:خريطة تبين مسالك التواصل بين الأقطار الإفريقية الواقعة على جانبي الصحراء

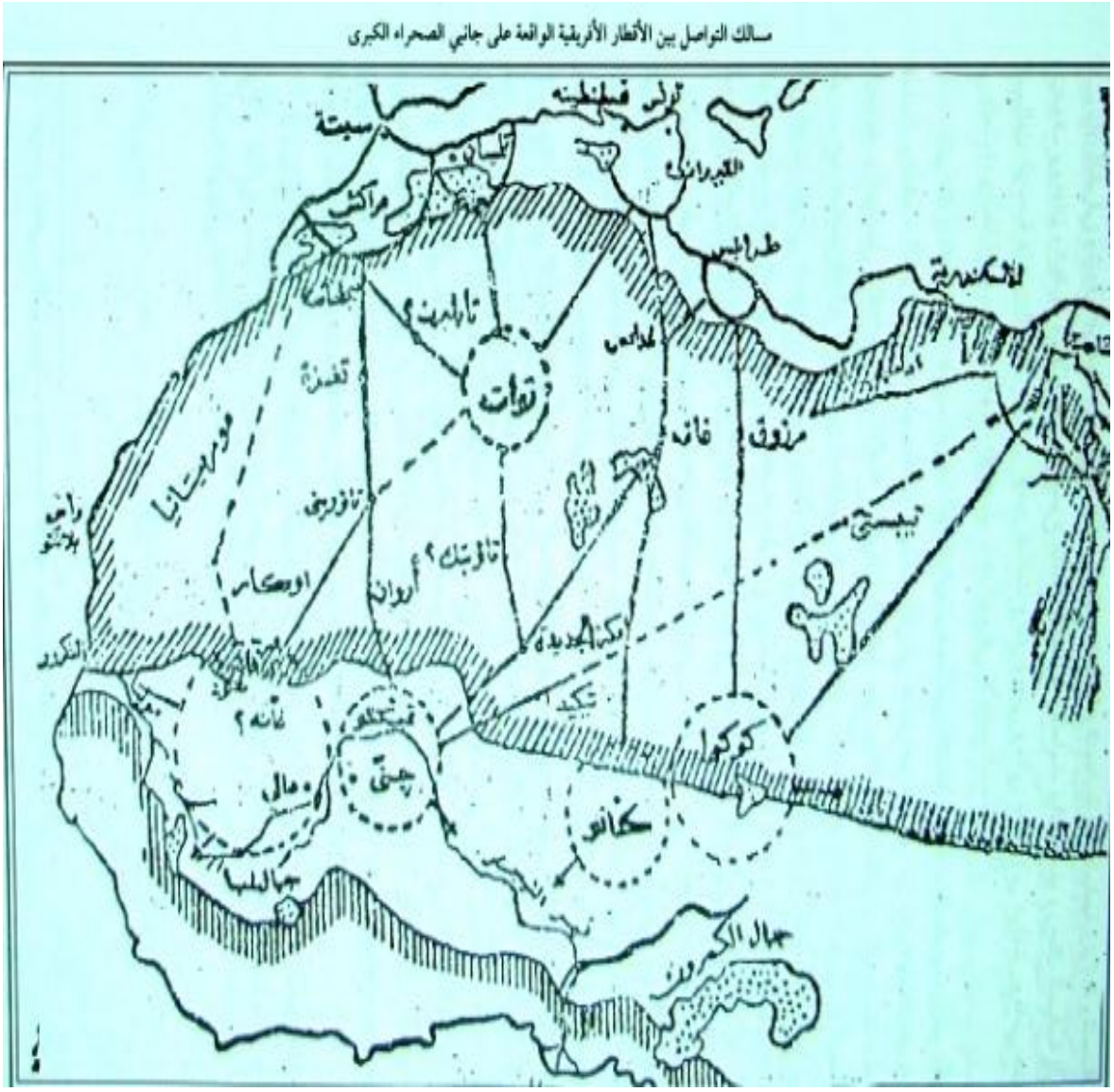

المرجع:عبد الخالق أحمدون:التواصل الحضاري بين المغرب والبلدان الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى،أعمال ندوة التواصل الثقافي بين الأقطار الإفريقية جنوب الصحراء،كلية الآداب بالمغرب وكلية الدعوة الإسلامية بطرابلس،1998،ط1،ص 286.

الملحق رقم 06: خريطة تبين أهم الطرق التجارية وقوافل الحجيج التي تعبر إقليم توات والصحراء

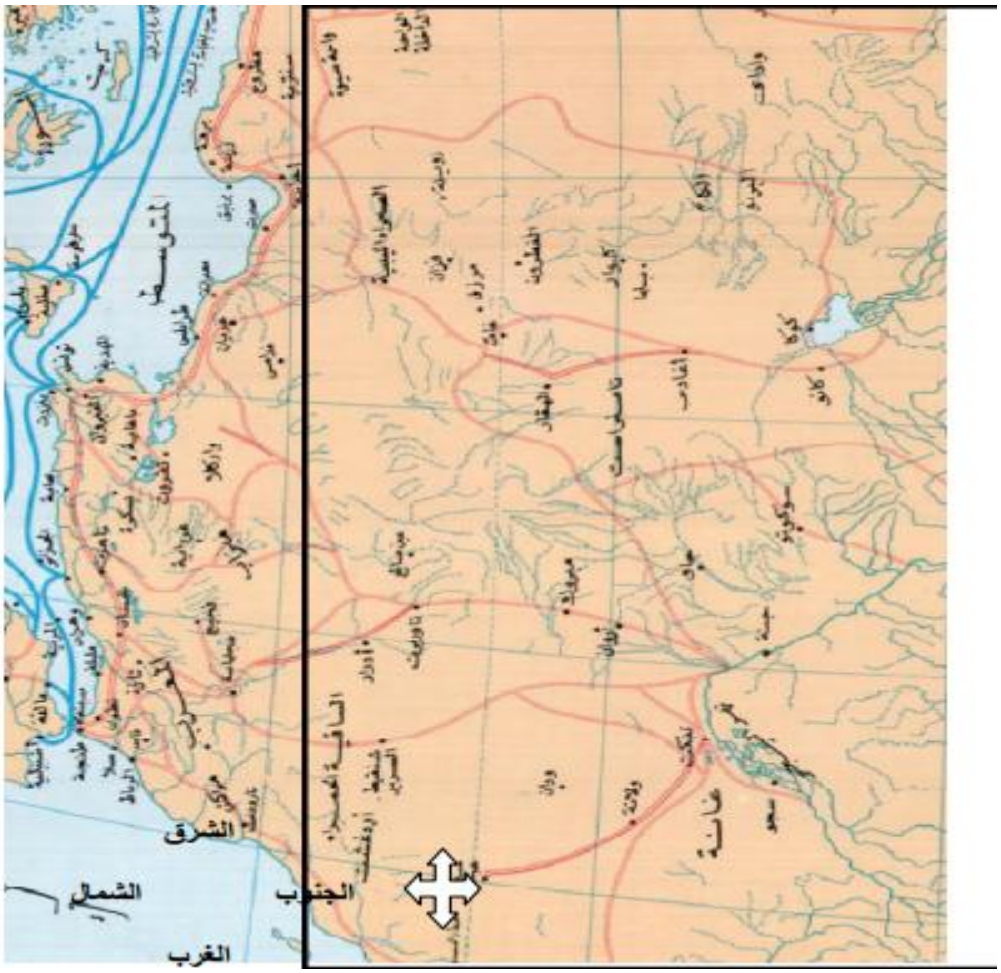

المرجع:مبارك جعفري:العلاقات الثقافية بين توات وتمبكتو،المرجع السابق،ص 284.

الملحق رقم 07: خريطة تبين أماكن أهم الزوايا بمنطقة توات

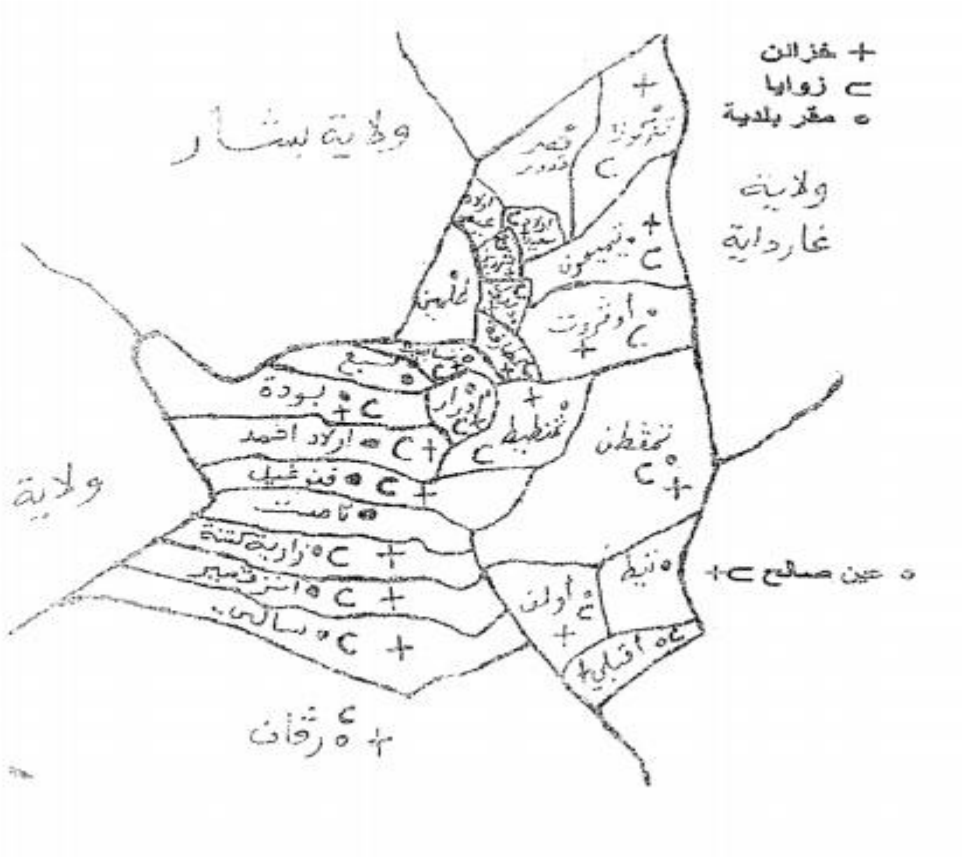

المرجع:أحمد جعفري:الحركة الأدبية في إقليم توات،المرجع السابق،ص 377.

الملحق رقم 08:الورقة الأولى لمخطوط محمد بن محمد البوداوي:نقل الرواة عن من أبدع قصور توات،مخطوط بخزانة كوسام

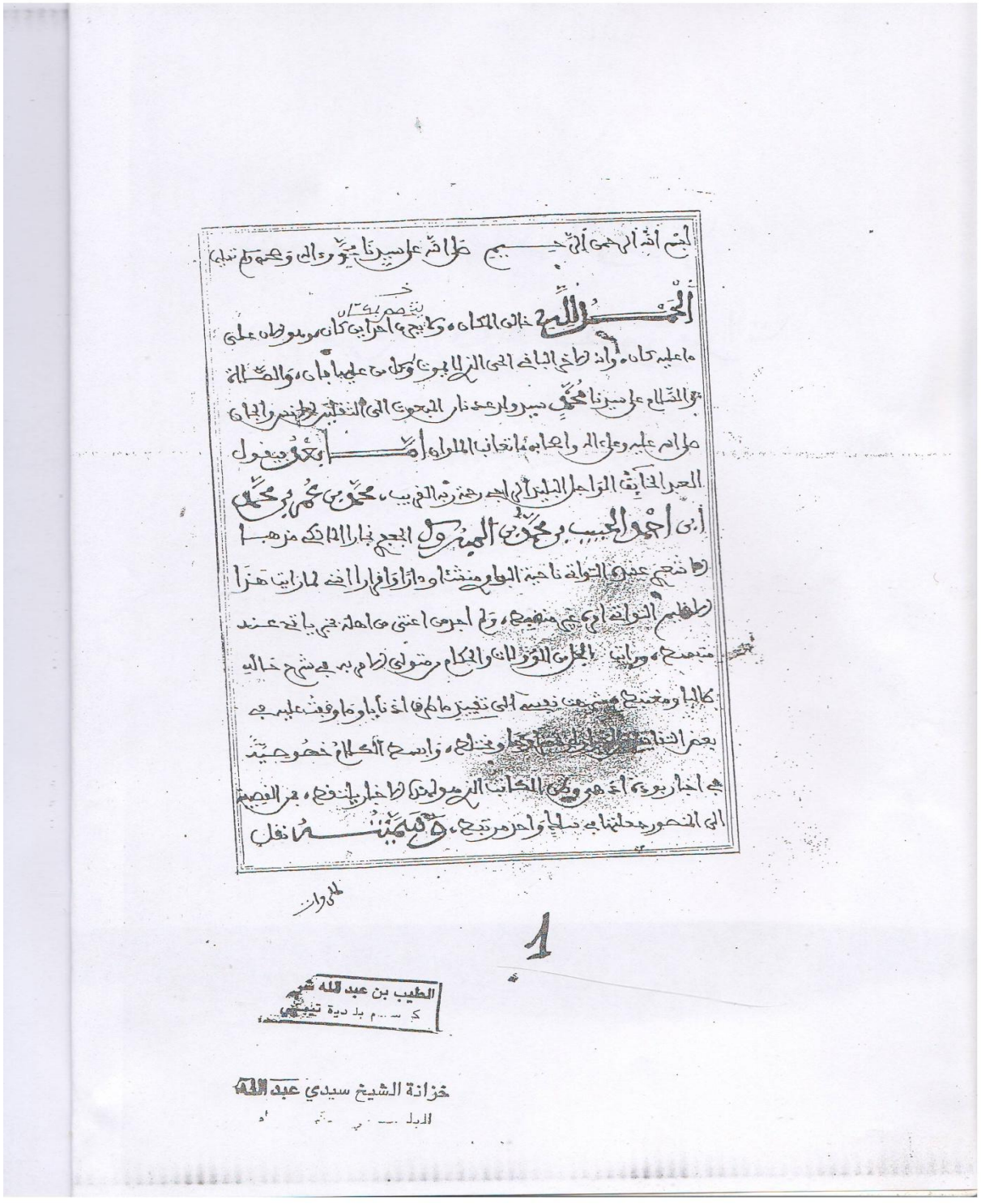

الملحق رقم 09: الورقة الأولى لمخطوط عبد الرحمن بن عمر التنلاني:فهرسة التنلاني،مخطوط بخزانة كوسام

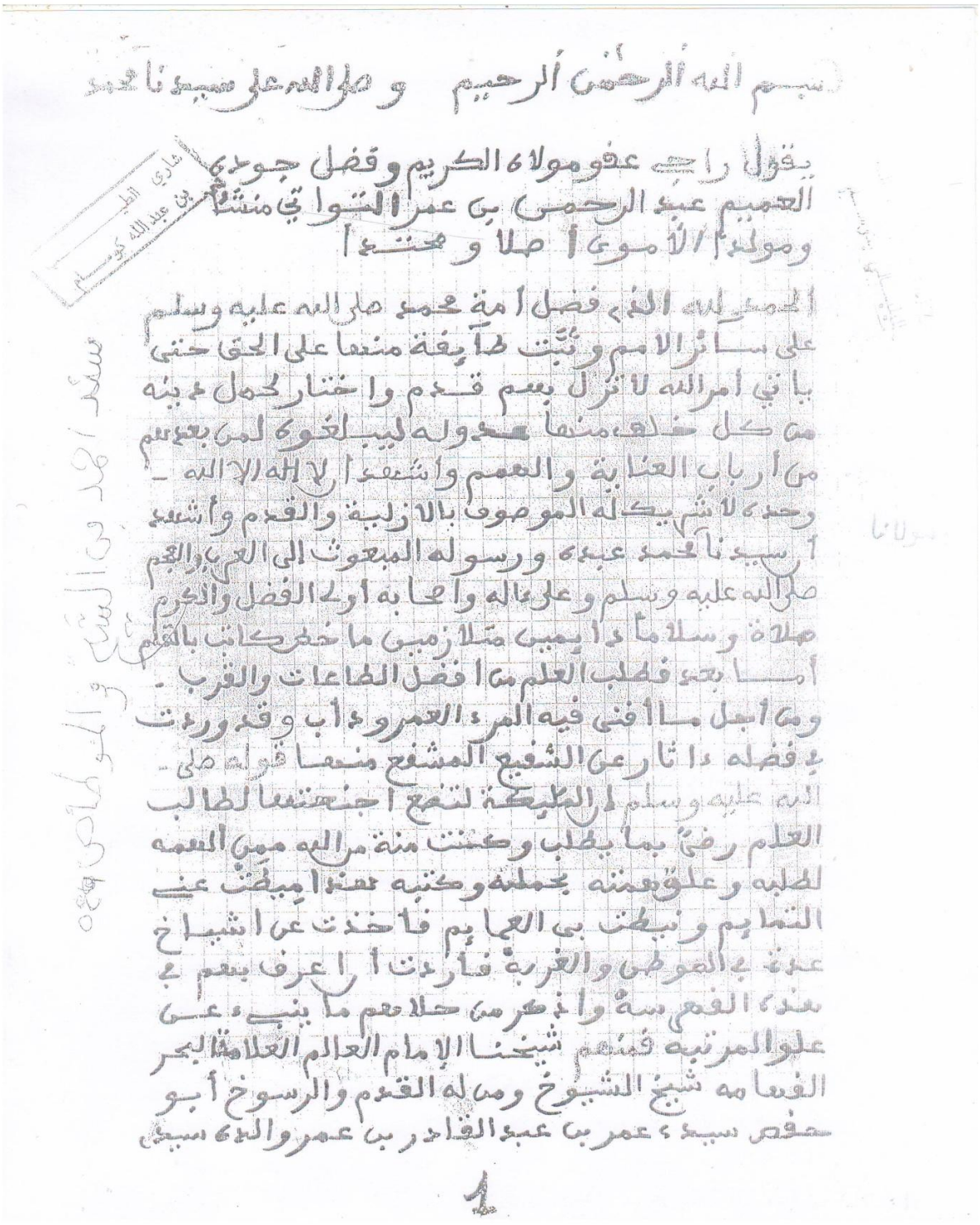

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد

يقول راجي عفو مولاه الكريم وفضل جوده العميم عبد الرحمن بن عمر التنلاني منشأ ومولدا الأموي أصلا ومحتدا

الحمد لله الذي فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الامم وثبت طائفة منها على الحق حتى يأتي أمر الله لا تزال بهم قدم واختار لحمل دينه من كل خلف منها عدوله ليبلغوه لمن بعدهم من أرباب العناية والهمم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الموصوف بالأزلية والقدم وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المبعوث إلى العرب والعجم صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أولي الفضل والكرم صلاة وسلاما دائمين متلازمين ما خط كاتب بالقلم

أما بعد فطلب العلم من أفضل الطاعات والقرب ومن أجل ما أفنى فيه المرء العمر وذاب وقد ورد في فضله آثار عن الشفيع المشفع منها قوله صلى الله عليه وسلم إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب وحثت منة من الله ممن أنعم لطلبه وعلق بمنته بحمله وكتبه فهذا ميقظ عني النائم ونبهت بي العزائم فأخذت عن أشياخ عدة في الوطن والغربة فأردت أن أعرف بعض من هذه الفعلة وأذكر من خلافهم ما ينبغي على علو المرتبة فمنهم شيخنا الإمام العالم العلامة البحر الفهامة شيخ الشيوخ ومن له القدم والرسوخ أبو حفص سيدي عمر بن عبد القادر بن عمر والدي سيدي

1

الملحق رقم 10:الورقة الأولى من مخطوط ضيف الله بن محمد بن أب:رحلة الشيخ ضيف الله،مخطوط بالمكتبة المنزلية عبد الله بن عبد القادر عماري.

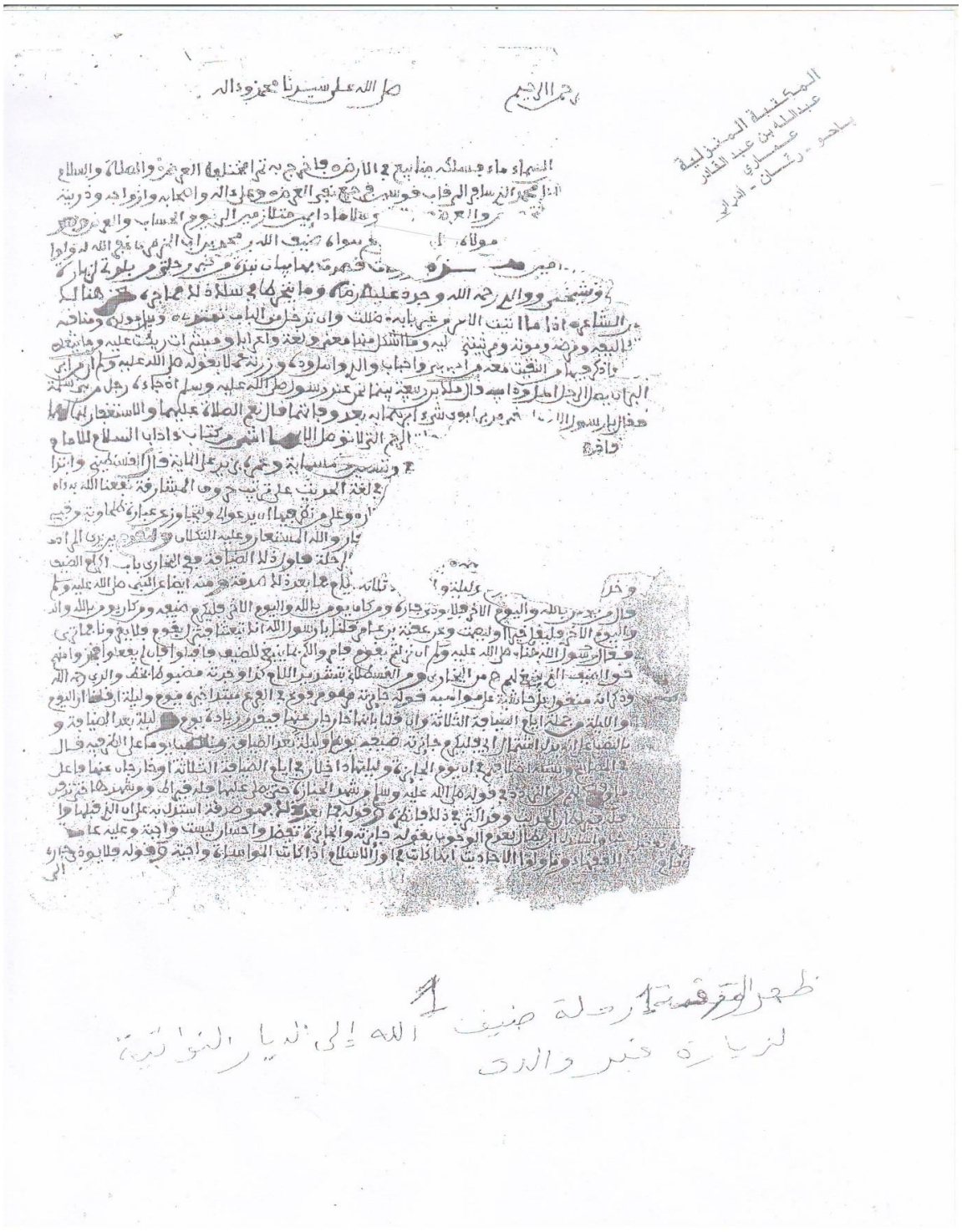

الملحق رقم 11:الورقة الأخيرة من مخطوط رحلة الشيخ ضيف الله،المصدر السابق.

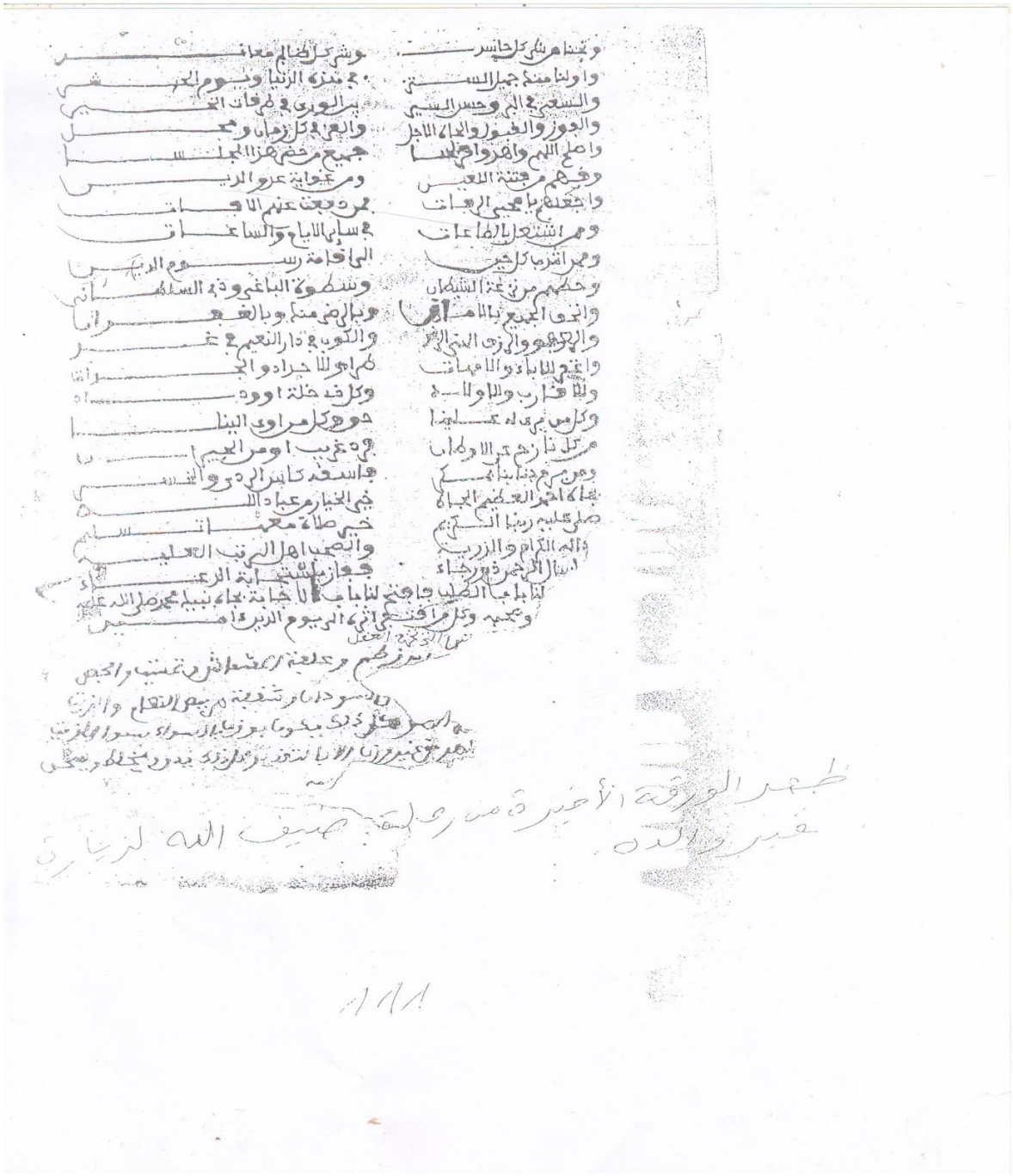

الملحق رقم 12: صورة لمدينة تمبكتو الحضارية

المصدر : موقع إلكتروني https://www.google.com/search

بتاريخ 2020/09/28 على الساعة العاشرة صباحاً

الملحق رقم 13. صور مخطوط من جامعة سنكري تمبكتو

المصدر: موقع الكتروني https://www.google.com/search

بتاريخ 2020/09/28 على الساعة العاشرة صباحاً

الملحق رقم 14. القوافل التجارية بين توات وتمبكتو

المصدر: موقع الكتروني https://www.google.com/search

بتاريخ 2020/09/28 على الساعة العاشرة صباحاً

فهرس الأعلام والأماكن

فهرس الأعلام

إسم العلم	الصفحة
منسى موسى	7
عمر بن محمد الندى	12
سني علي	13
الاسكيا محمد	13
الشاعر الغرناطي الساحلي	14
أحمد بابا التمبكتي	14
محمد ركعت	14
الشيخ محمد فتحا بن أبي محمد الأمريني	15
انطونيو مولفانتي	15
الشيخ سيدي محمد علي بن حنيني	15
البابا علي بن عبد القادر	16
الشيخ الحاج أبو بكر بنن الحاج عيسى	16
الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي	16
الشيخ أبو بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي	17
الشيخ سيدي محمد الكنتي	17
الشيخ بن عبد الكريم المغيلي	26-18-09
الشيخ علي بن حنيني الأنصاري	21
الشيخ أبو بكر بن الحاج عيسى الغلاوي	22
الشيخ أحمد الرقادي	44

الشيخ عمر الفوتي التكروري	44
الشيخ عبد الكريم البكري	44
الشيخ أحمد بن الأمين القبلاوي	54
الشيخ عثمان دان فوديا	54
الشيخ محمد بن الحسن بن محمد الحاج الفولاني	50
الشيخ عبد الرحمان السكوني	53

فهرس الأماكن

المكان	الصفحة
توات	2-4-8-11-16-22-23-24-33-44-47-51
تمبكتو	2-4-8-11-12-13-22-24-33-46-48-52
قورارة	5-7
تديكلت	5-7
تغازة	5-7
ولاتة	5-7-13-15
سجلماسة	5-7-15-31
هقار	7
أولف	5
تمنطيط	5
بودة	5
تلمسان	11
فاس	11
قاو	15
عين صالح	23
ميزاب	23
غدامس	24

أقبلي	24
أروان	24-28
شنقيط	27-25

فهرس الموضوعات

فهرس المحتويات:

المحتوى	الصفحة
الإهداء	
شكر وعرفان	
مقدمة	**أ–د**
المدخل : التعريف بمنطقتي توات وتمبكتو تاريخياً وجغرافياً	**4**
الفصل الأول: جذور العلاقات التاريخية بين حاضري توات وتمبكتو	
المبحث الأول: الأهمية التاريخية لحاضرتي توات وتمبكتو	**11**
المطلب الأول: الأهمية التاريخية لحاضرة توات	**11**
المطلب الثاني: الأهمية التاريخية لحاضرة تمبكتو	**12**
المبحث الثاني: بدايات التواصل الحضاري بين توات وتمبكتو	**15**
المطلب الأول: القوافل التجارية	**15**
المطلب الثاني: ركب الحجيج	**16**
المطلب الثالث: تنقل السكان بين الحاضرين	**17**
خلاصة الفصل	**20**
الفصل الثاني: العلاقات الاقتصادية بين توات وتمبكتو	
المبحث الأول:القوافل والمسالك التجارية	**22**
المطلب الأول:القوافل التجارية	**22**
المطلب الثاني: الطرق والمسالك التجارية	**24**
المطلب الثالث: التجارة الصحراوية	**25**
المبحث الثاني: المظاهر الإقتصادية والتبادل التجاري	**28**

فهرس الموضوعات

المطلب الأول: المبادلات التجارية	**28**
المطلب الثالث: وسائل التبادل التجاري	**30**
المطلب الثاني: السلع المتبادلة	**32**
خلاصة الفصل	**39**
الفصل الثالث: الروابط الإجماعية بين توات وتمبكتو	
المبحث الأول: الرحلات التواتية إلى تمبكتو	**41**
المطلب الأول: الرحلات العلمية	**41**
المطلب الثاني: الرحلات الحجية	**44**
المطلب الثالث: رحلات الأسر والأفراد	**45**
المبحث الثاني: الخصائص والصلات الاجتماعية بين توات وتمبكتو	**47**
المطلب الأول: خصائص مجتمعي توات وتمبكتو	**47**
المطلب الثاني: أهم القبائل المتنقلة بين الحاضرتين	**50**
المطلب الثالث: العادات والتقاليد الإجتماعية المتبادلة بين الحاضرين	**54**
خلاصة الفصل	**56**
خاتمة	**58**
قائمة المصادر والمراجع	**60**
الملاحق	
فهرس الأعلام والأماكن	

الملخص بالعربية:

عرفت منطقة توات في العصر الحديث حركة اجتماعية واقتصادية منقطعة النظير خاصة مع انفتاحها على بلدان الجوار والحواضر المجاورة لها مثل: تمبكتو، شنقيط، فاس، غدامس، وقد ساعدها قربها الجغرافي من تمبكتو التي عرفت في هذه المرحلة ازدهاراً علمياً وتجارياً على ربط علاقات اجتماعية واقتصادية بدأت منذ العصر الوسيط وبرحلة الشيخ بن عبد الكريم المغيلي إلى تمبكتو واحتكاكه بعلمائه وسلاطينها.

إزدهرت العلاقات الإقتصادية بين الحاضرتين وكانت القوافل تأتي محملة بمختلف السلع من تمبكتو وأروان إلى توات وأهم سلعهم: العاج، الشمع، الصابون، الملح، كما كانت لتوات أسواق ورحبات مثل رحبة تمنطيط التي كانت بها محلات لبيع الذهب، الفضة ، الجلود، الأقمشة، كما كان الملح يأتي من منطقة تاودني بأروان وكانت التجارة تتم عن طريق المقايضة أو البيع مقابل الدنانير الفضية والذهبية.

كانت توات ملتقى القوافل التجارية والحجية بفضل موقعها الإستراتيجي ورحابة أهلها وتوفر الأمن بقصورها ووجود خانات لحفظ البضائع والسلع وتوفر المياه.

من الناحية الإجتماعية لعبت المصاهرة وتنقل القبائل بين المنطقتين دوراً هاماً في التلاقح الحضاري وامتزاج الأسر والشعوب حيث استقر الكثير من سكان تمبكتو مثل أسر الكنتيين والشرفاء والفولانيين والبرابيش في توات وانتقل الكثير من العلماء التواتيين من أجل الإمامة والتدريس إلى تمبكتو وتأثر بهم السكان بفعل سماحتهم وعلمهم كما انتقلت العادات والتقاليد في اللباس والأكل والفلكلور بين سكان الحاضرتين.

الكلمات المفتاحية: توات، تمبكتو، البربر، شنقيط، ولاتة، القوافل التجارية، تمبكتو

Résumé en français :

La région des Touat a connu à l'époque moderne un mouvement social et économique sans égal, notamment avec son ouverture aux pays voisins et aux villes voisines telles que: Tombouctou, Chinguetti, Fès et Ghadames. Sa proximité géographique avec Tombouctou, qui était connue à ce stade avec une prospérité scientifique et commerciale, l'a aidée à lier les relations sociales et économiques Cela a commencé au Moyen Âge, avec le voyage de Cheikh bin Abdul Karim al-Maghili à Tombouctou et ses contacts avec ses savants et sultans.

Les relations économiques ont prospéré entre les deux villes, et les caravanes ont transporté diverses marchandises de Tombouctou et Arawan à Touat, et leurs marchandises les plus importantes: ivoire, cire, savon, sel, tout comme il y avait des marchés et des ravages comme le Tamanedet Rahbat qui avait des magasins vendant de l'or, de l'argent, du cuir, des tissus, ainsi que Le sel venait du district de Toudeni en Arawan, et le commerce se faisait par troc ou en vendant des dinars en argent et en or.

Tuat était un lieu de rencontre pour les caravanes commerciales et authentiques grâce à son emplacement stratégique, à l'espace de ses habitants, à la sécurité de ses palais, à la présence de box pour stocker marchandises et commodités et à la disponibilité de l'eau

Sur le plan social, les mariages mixtes et les mouvements de tribus entre les deux régions ont joué un rôle important dans le métissage culturel et le brassage des familles et des peuples, car de nombreux habitants de Tombouctou, comme les familles des Kantiens, des Sharifa, des Peuls et des Berabish, se sont installés à Touat. Les coutumes et traditions vestimentaires, alimentaires et folkloriques se sont transmises entre les deux métropoles.

Mots clés: Touat, Tombouctou, Berbères, Chinguetti et Latta, caravanes commerciales, Soudan occidental